المواجهة

تخليص الإبريز في تلخيص باريز <٣>



رفاعة رافع الطهطاوي



رفاعة رافع الطهطاوي

تخليص الابريز في تلخيص باريز

(٣)





١٩٩٣

الفصل الثانى

(فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج)

حين اجتماعنا فى بيت الأفندية كنا لا نخرج منه ليلا ولا نهارا الا يوم الأحد الذى هو عيد الافرنج بورقة اذن البواب من الضباط الذى نظره علينا الوالى ، ثم بعد (ص ١٤٩) تفرقنا فى المكاتب المسماة « البنسيونات » (١) كنا نخرج أيام البطالة ، وهى يوم الأحد بتمامه ويوم الخميس بعد الدروس ، وأيام أعياد الفرنساوية ، ومنا من كان يخرج كل ليلة بعد العشاء ان لم يكن له درس بعده .

ولنذكر لك هنا « قانون نامة » الذى صنعه (الأفندية) بعد دخولنا فى « البنسيونات » وعبارته :

هذه صورة ترتيب (الأفندية) فى « البنسيونات » .

المادة الأولى : أن يوم الأحد المقرر لهم الخروج فيه يلزم أن يخرجوا من البنسيونات فى الساعة التاسعة ، ويأتوا الى البيت المركز من أول الأمر ، ويقدموا وقت الدخول ورقة معلمهم الى (الأفندى) (النوبتجى) فى هذا الشهر ، لأجل أن يعلم ساعة دخولهم فى البيت ، وبعد ذلك يذهبون الى المواضع المعدة للفرجة ، بشرط أن يجتمع ثلاثة أو أربعة ، ثم يرجعون الى « البنسيونات » فى أيام الصيف فى الساعة التاسعة ، وفى أيام الشتاء فى الثامنة .

---

(١) Les Pensions.

وهذا الترتيب لازم ولابد ، فان رجع أحد الى « البنسيون » قبل ذلك ، وتعشى هناك ، فهو أولى وأحسن ومن اللوازم أن لايدور أحد في الأزقة ليلا ، ومتى دخل في « البنسيونات » يعطى الورقة المذكورة للمعلم ·

المادة الثانية : أن من لم يمتثل لخصوص ما سبق يمنع الخروج من « البنسيون » بحسب الاقتضاء جمعة أو جمعتين ·

المادة الثالثة : أن كل من له شكاية من معلمه لا تسمع،ولاتقبل، حتى يكتبها في ورقة ، ولا تسمع الا من جهة التعليم ، أو من جهة أخرى يحصل له منها ضرر ، ولكن قبل أن يكتب ورقة الشكاية يعرف عنها معلمه مرة ، ثم يكتبها (للنوبتجى) فى هذا الشهر ·

المادة الرابعة : أن جميع (الأفندية) يمتحنون فى آخر كل شهر ، ليعرف ما حصلوه من العلوم فى هذا الشهر ، ويسألون عما يحتاجون اليه من الكتب والآلات ، ويكتب فى آخر كل شهر كسبهم وتحصيلهم وأفعالهم على الصحيح ، ولأجل هذا ينبغى التفكر فى هذا الخصوص ، لأجل تحصيل غرض الوالى ·

المادة الخامسة : لو احتاجوا شيئا من الكتب والآلات فى أثناء الشهر يطلبونه من معلمهم بورقة يكتبونها له ، ومعلمهم يخبر بذلك «مسيو جومار» فان رآه مناسبا يعطيهم ذلك بعد ما يخبر (النوبتجى) فان اشترى أحد شيئا من غير اجازة يلزمه أن يدفع ثمنه من عنده ·

المادة السادسة : أنه بعد الامتحان بما ذكرنا فى المادة الرابعة ان استحق أحد من (الأفندية) الهدية بنجابته تعطى له كتب وآلات وسكة (١) ·

---

(١) يريد النقود · والسكة فى الأصل : حديدة منقوشة تضرب عليها الدراهم ·

المادة السابعة : فى محل التفرج او الطريق لا ينبغى لأحد منهم أن يرتكب ما يخل بمروءته وهذا الأمر هو أهم الجميع ، وممنوع أشد المنع ٠

المادة الثامنة : أن كل الأفندية الذين هم فى « البنسيونات » لايدخلون فى البيت المركز الا كل خمسة عشر يوما مرة ، وهو يوم الأحد ٠

المادة التاسعة : أن يوم الأحد الذى لا يأتون فيه الى البيت يخرجون فيه مع أولاد الفرنساوية أو مع المعلمين الى مواضع التفرج أو الرياضة أو ما ينبغى رؤيته ، وكذلك يوم الخميس أو يوم التعطيل ، ان لم يكن عليهم شغل ، فيذهبون مع من ذكر الى المواضع المذكورة ٠

المادة العاشرة : يتبعون قوانين « البنسيون » كأولاد الفرنساوية بالتدقيق والاهتمام فى غير الأمور المتعلقة بالدين ٠

المادة الحادية عشرة : (١) اذا خالف أحد هذا الترتيب يقابل بقدر لمخالفته واذا أظهر عدم الطاعة يحبس بالخشونة ، وان كان أحد يتشبث بأفعال غير لائقة ، وأطواره غير مرضية ، وجاءت تذكرة من معلمه تشهد عليه بقبح حالة ، وتبين عصيانه فمثل ما ذكر الوالى فى القوانين التى أعطاها لنا نتشاور مع المحبين له من أهالى هذه المدينة ، ونرسل فاعل القبح والعصيان بنفسه حالا الى مصر من غير شك ولا شبهة ٠

المادة الثانية عشرة : (٢) أن جميع (الأفندية) يكونون فى « البنسيونات » فى هذا الترتيب على حد سواء ، وان كان فى

---

(١) فى الأصل (عشر) ، وهو خطأ ٠
(٢) فى الأصل : عشر ، خطأ ٠

« البنسيونات » مائدتان احداهمـا للمعلمين ، والأخرى للتلامـذة (فأفنديتنا) يأكلون مع معلميهم ٠

المادة الثالثة عشرة : (١) ان (الأفندية) المذكورين يلزمهـم جميع ما ذكر من القوانين من غير امتياز ، وبسبب ذلك أعطينا كل واحد منهم صورة ذلك ٠

المادة الرابعة عشرة : كل المواد السابقة هي خلاصة أفكارنا ، ونتيجة أذهاننا وأذهان الأعيان الذين وصاهم علينا الوالى ، وبناء على ذلك كل أحد يلزمه أن يتبعه،مع التنبه لأجل تحصيل رضاء الوالى ، فمن لم يمتثل ، أو تعلل بشىء يجرى عليه ما هو مذكور في قانونه ٠

---

(١) في الأصل : عشر : خطأ ٠

الفصل الثالث

(فى ترغيب الوالى لنا فى الشغل والاجتهاد)

جرت عادته من مدة خروجنـا من مصر بأنه كان يبعث لنـا « فرمانا » كل عدة أشهر ، يحثنـا فيـه على تحصـيل الفنون والصنائع ، فمن هذه « الفرمانات » ما كان من باب ما يسمى عند العثمانية احياء القلوب مثل الفرمان الآتى ، ومنها ما كان من باب التوبيخ على ما كان يصله منا ويبلغه عنا من بعض النـاس حقـا أو غير ذلك ، (كفرمان) آخر وصلنا قبل رجوعنا الى مصر القاهرة ، ولنذكر لك هنا (فرمانا) من النوع الأول الذى هو احياء القلوب ، وان كان فيه أيضا شائبة توبيخ لتعلم كيف كان يحثنا على التعليم . وهذه صورة ترجمته :

قدوة الأماثل الكرام (الأفنـدية) المقيمين فى « باريس » لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم .

ينهى اليكم أنه قد وصـلنا أخباركم الشـهرية والجداول المكتوب فيهـا مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منا ما حصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئا وأنتم فى مدينة مثل مدينة « باريس » التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسـا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنـا عدم غيرتكم وتحصيلكم ، وهذا الأمر غمنـا غما كثيرا ، فيا (أفندية) ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل

واحد منكم يرسل لنا شيئا من أثمار شغله وآثار مهارته ، فاذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم الى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فان ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم اذا جئتم بهذه الكيفية ، وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغي للانسان أن يتبصر في عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة ، وأن يجني ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك أنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذي يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا وتوجهنا اليكم ، لتتميزوا بين أمثالكم ، فان أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته في الهندسة ، والحساب ، والرسم ، وما بقي عليه في خلاص هذه العلوم ، ويكتب في كل شهر ما تعلمه في هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وان قصرتم في الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه ، وهو اما من عدم اعتنائكم ، أو من تشويشكم ، وأي تشويش لكم هل هو طبيعي أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هي عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرؤا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الارادة ٠

قد كتب هذا الأمر في ديوان مصر ، في مجلسنا في اسكندرية ، بمنه تعالى : فمتى وصلكم أمرنا هذا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه (خمسة في ربيع الأول ، سنة ١٢٤٥) خمسة وأربعة بعد الألف والمائتين من الهجرة ٠ انتهت صورة المكتوب ٠

ومن وقت هذا المكتوب صرنا نكتب كل شهر جميع ما قرأناه وما تعلمناه في ذلك الشهر . ويكتب تحتـــه المعلمون أســماءهم ويبعثونه الى الوالى ، فلما تســاهل بعض منــا في ذلك كتب « مسيو جومار » الينا جميعا مكاتيب ، ليأمر من كان مواظبـــا على كتابة هذه الأوراق في كل شهر أن يدوم على مواظبته ، ويوبخ من تساهل . وهذه صورة ترجمة المكتوب الذى أرسله الى في هذا المعنى ، ولنذكره كما هو :

باريس ١٥ في شهر يونية ٢٥ في شهر محرم سنة ١٢٤٦

الى محبنا العزيز الشيخ رفاعة

لا يخفى عليكم الأمـــر الوارد مـــن الوالى المتعلق بالأوراق الشهرية ، المشتملة على الدروس التى قرأتموها ، فدم على ما أنت عليه من المواظبة ، وابعث هذه الأوراق في اليوم الثلاثين كل شهر « لمسيو المهردار أفندى » واطلب منه أوراقا غير مكتوبة ، لتكتبهـا بعد ذلك ، ومن المعلوم أن هذه الورقة الشهرية لا تأخذ في كتابتها الا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ، ومعرفة نوعها . وليكتب رئيس مدرستك في كل شهر في الورقة الشهرية تحت اسمك ، ولا يخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فأطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .

جـومار

أحد أرباب ديوان الأنسطيطوت

الفصل الرابع

(فى بعض مراسلات بينى وبين بعض من كبار علماء الفرنساوية غير مسيو جومار)

فممن كاتبنى عدة مرات « مسيو دساسى » ولنذكر لك بعض مكاتيبه ، فمنها ما كتبه باللغة العربية ، ومنها ما كتبه باللغة الفرنساوية ٠

صورة مكتوب منه :

من الفقير الى رحمة ربه سبحانه وتعالى ، الى المحب العزيز المكرم ، والأخ المعز المحترم الشيخ الرفيع رفاعة الطهطاوى ، صانه الله عز وجل من كل مكروه وشر ، وجعله من ذوى العافية وأصحاب السعادة والخير ٠

أما بعد : فان القطعة التى أكملت المطالعة فيها من كتابك النفيس ، وحوادث اقامتك فى باريس رددتها اليك على يد غلامك ، ويصلك صحبتها حاشية منى على ما تقوله فى باب تصريف الفعل فى لغتنا الفرنساوية ، فاذا نظرت فيها تبين لك صحة ما نستعمله من صيغة الفعل الماضى ، فمن الواجب عليك أن تصنف كتابا يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوروبا كلها وفى ممالكها ، حتى يهتدى أهل مصر الى موارد تصانيفنا فى فنون العلوم والصناعات ومسالكها ، فانه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ،

ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر ، ودمت سالما ٠

كتبه المحب سلوسترى دساسى

صورة مكتوب آخر :

الى حبيبنا الشيخ رفاعة الطهطاوى ، حفظه الله ، وأبقاه ٠

أما بعد : فانه سيصلك مع هذا ما طلبته منـــا من الشهادة بأننا قرأنا الكتاب المشتمل على حوادث سفرك ٠ وكل ما أمعنت فيه النظر من أخلاق الفرنساوية وعوائدهم وسياساتهم وقواعد دينهم وعلومهم وآدابهم وجدناه مليحا مفيدا يروق الناظر فيه ، ويعجب من وقف عليه ٠ ولا بأس أن تعرض خط يدنا على « مسيو جومار » وان شاء الله يحصل لك بمصنفك هذا حظوة عند حضرة ســعادة الباشا وينعم عليك بما أنت أهله ودمت على أحسن حال ٠

محبك الداعى : سلوسترى دساسى الباريزى

وصحبة هذا المكتوب أرسل الى ورقة باللغة الفرنســاوية لأطلع عليها « مسيو جومار » وهى بالتقريظ أشبه ، وصـــــورة ترجمتها ٠ :

لما أراد مسيو رفاعة أن أطلع على كتاب سفره باللغة العربية قرأت هذا التاريخ الا اليسير منه ، فحق لى أن أقول : انه يظهر لى أن صناعة ترتيبه عظيمة ، وأن منه يفهم اخوانه من أهل بلاده فهما صحيحا عوائدنا وأمورنا الدينية والسياسية والعلمية ، ولكنـــه يشتمل على بعض أوهام اسلامية ومن هذا الكتاب يعرف علم هيئة العـــالم وبه يســـتدل على أن المؤلف جيد النقد ، ســليم الفهم ، غير أنه ربما حكم على ســـائر أهل فرنسا بما لا يحـكم به الا على « أهل باريس » والمدن الكبيرة ، ولكن هذه نتيجة متولدة ضرورة من حالته التى هو عليها، حيث لم يطلع على غير «باريس»وبعض المدن ٠

وقد حرص (١) في باب العلوم على ذكر المعلومات توطئـــة للتوصل الى المجهولات خصوصا في نبذته المتعلقة بعلم الحساب ، وبهيئة الدنيا ٠

وعبارة هذا الكتاب ٠ في الغالب واضـــحة غير متكلف فيها التنميق ، كما يليق بمسائل هذا الكتاب ٠ وليست دائما صحيحة بالنسبة لقواعد العربية ، ولعــل سبب ذلك أنه اســتعجل في تسويده ، أنه سيصلحه عند تبيضه وفي التكلم على علم الشعر ذكر استطرادا بعض أشعار عربية أجنبية من موضوع هذا الكتاب ، على ما يظهر لي ٠لكنه ربما أعجب ذلك اخوانه من أهل بلاده ، وفي الكلام على تفضيل الصورة المدورة على غيرها من الأشكال ، ذكر بعض أشـــياء قليلة الجدوى فينبغي له حذفها ، وما ذكرت هذه الأشياء وبينتها هذا التبيين الا للاعلام بأني دققت النظر في قراءتي هذا الكتاب ٠

وبالجملة فقد بان لي أن مسيو رفاعة أحسن صرف زمنـــه مدة اقامته في فرنسا ، وأنه اكتسب فيها معارف عظيمة ، وتمكن منهـــا كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعـــا في بلاده ، وقد شهدت له بذلك عن طيب نفس ، وله عندي منزلة عظيمة ، ومحبة جسيمة ٠

البارون سلوستري دساسي

باريس في شهر فبريه سنة ١٨٣١ (١٩ في شعبان ســـنة ١٢٤٦) ٠

و (هذه) صورة ترجمة مكتوب كتبه لي قبيل خروجي من مدينة « باريس » ٠

---

(١) في الأصل (أحرص) تحريف ٠

بعد اهداء السلام الى مسيو رفاعة ، يحصـــل لى حظ عظيم اذا جاء عندى يوم الاثنين الآتى ، والساعة فى ٣ ان أمكنه أن يسرنى برؤيتى له لحيظات لطيفة ، ويحصل لى أيضا غاية الانبساط اذا بعث لى أخباره بعد وصوله الى القاهرة ، فاذا لم يتيسر لى رؤيته طلبت له طريق السلامة ، ولا أزال أتذكر دائما آثاره ، وأستنشق أخباره ، مع انجذاب قلبى ، وانشراح صدرى .

البارون سلوسترى دساسى

وصورة ما كتبه « مسيو كوسين دى برسوال » مدرس اللغة العربية المتداولة فى المحاورات ، المشهورة باســـم الدارجة عند العامة ، بدار كتب خانة السلطانية « بباريس » وكنت كتبت له أن يبعث لى رأيه فى هذه الرحلة ، فكتب هذا الجواب ، وصورته :

حضرة المحب العزيز الأكرم ، الفصيح اللســـان والقلم ، جناب الشيخ رفاعة المحترم ، حفظه الله آمين .

بعد اهدائكم جزيل السلام ، ومزيد التحية والاكرام ، فقد ورد علينا عزيز مكتوبكم البارحة ، فبادرنا بقضاء حاجتكم ، فواصل لكم طية تحرير تحتوى على رأينا فى كتاب حوادث ســـفركم الذى تفضلتم علينا باطلاعنـــا عليه ، وبالحقيقة قلنا مثل ماهو اعتقادنا وشرحنا ما وجدنا فيه من المحاسن . وأما بخصوص المدام فما لقينا من ذلك شيئا .

وحيث انكم عازمون على السفر فى آخر هذا الشهر ، فالمأمول من حسن محبتكم أنكم بعد وصولكم بالسلامة الى بلادكم لا تحرمونا من خاطركم ، وتواصلونا بالاعلام .

بصحتكم ،ونترجاكم أيضا أنه اذا طبع كتابكم تبعثوا (١) لنا منه نسخة ، وبذلك تصــيرونا (٢) ممنونين ، ولأفضالكم شاكرين ، والله تعالى يحفظكم والسلام •

محبكم كوسين دى برسوال

٢٤ شباط سنة ١٨٣١

والمراد بطيه التحرير ورقة شهادته بأنه اطلع على هذا الكتاب ، وقال رأيه فيه • وصورة ترجمة هذه الطية التي كتبها لمسيو جومار باللغة الفرنساوية ليخبره برأيه في هذه الرحلة : قرأت بالتأمل مؤلف الشـيخ رفاعة الملقب بتخليص الابريز في تلخيص باريز ، فوجدته يتضمن حكاية صغيرة فى سفر المصريين المبعوثين الى فرنسا من طرف وزير مصر الحاج محمد على باشا ، وتشتمل على تخطيط مدينة باريز ، وعلى نبذات موجزة فى جملة فروع من العلوم المطلوبة التعليم من هؤلاء التلامذة • وقد ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح وأنه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فانه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه أدنى من بلاد أوروبا فى العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاسلام ، ويدخل عندهم الرغبـــة فى المعارف المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمـدن الافرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليـــد ذلك • وما نظر فيه فى بعض العبــارات يدل فى الغالب على سلامة عقله ، وخلوه من التعسف والتحامل •

---

(١) الصواب : تبعثون •

(٢) الصواب : تصيروننا •

وعبارة هذا الكتاب بسيطة أى غير متكلف فيها التنميق ، ومع ذلك فهى لطيفة • وحين كانت نسخة هذا الكتاب بيدى كان الجزء الذى يتعلق بالعلوم والفنون غير تام ، فما رأيت منه الا نبذة فى الرياضيات ، وعلم هيئة الدنيا ، ومبادىء أصول الهندسة ، والجغرافيا الطبيعية ، فهذه النبذات وان كانت موجزة الا أنهـــا مشبعة •

فيترجى أن المؤلف يدوم على تأليف النبذات الباقيـــة بهذه المثابة ، واذا اجتمعت هذه النبذات فى الكتاب هذا فانها تكون كتاب علوم مستقل ، مفتاحا لغيره من العلوم نافعا لأهل العربيـــة ، واذا فرغ الكتاب بهذه الطريقة فانه يستدل به على رفعة عقل مؤلفه ، واتساع دائرة معرفته •

كوسين دى برسوال

فاذا قابلت هذا المكتوب مع ما تقدم رأيت أن « مسيو دساسى » و « مسيو كوسين » اتفقا على حسن هذا الكتاب ، وعلى بســـاطة عبارته ، أى عدم التأنق فيها ، وعلى نفعه لأهل مصر •

وانما « مسيو دساسى » عابه بثلاثة أشياء : الأول : اشتماله على بعض مسائل يعتقد أنها من أوهام الاسلام ، الثانى : جعلنـــا ما ينسب لمدينة « باريس » وغيرها من المدن عاما لســـائر بلاد فرنسا ، الثالث : ذكرنا بعض أشياء قليلة الجدوى عند تفضيل الشكل المدور على غيره من الأشكال •

وأما « مسيو كوسين » فانه لم يتعرض لما جعله « مسيو دساسى » من باب الأوهام ، ولما تحدثت معه فى شأن ذلك أجابنى بأنه لم ير ذلك مضرا ، حيث انى كتبت على ما هو فى اعتقادى ، والا لو تتبعت ما قاله الافرنج ، ووافقت آراءهم للحياء أو غيره لكان ذلك محض

موالسة ، وأما قوله « كمسيو دساسى » : ان عبارة فى هذا الكتاب بسيطة فمعناه أن تراكيبه لم يحاول فيها سلوك طريق البلاغة : يقال عند علماء الفرنساوية ، عبـارة بسيطة فى مقابلة العبـارة البليغة ٠

ولنذكر لك هنا رسالة من شخص كان بينى وبينه محبـة أكيدة ، وصورة اجتماعى لهذا الشخص أنى دخلت مكتبـه لقراءة « الكازيطات » إى الوقائع اليومية ، فتعرفت بهذا الشخص الذى هو (محاسبجى) فى وزارة الخزينـة الماليـة ، وأخوه مأمور « دبرطمانه (١) » يعنى اقليما من أقاليم الفرنساوية ، وهو من بدنة عظيمة ، تسمى : « السلادانية » نسبة الى « سـلادان » يعنى صلاح الدين يتوهمون أنهم ينتسبون (ص ١٥٧) الى السلطـان صلاح الدين الأيوبى ، قائلين : انه يحتمل أن يكون حين محاربته مع الافرنج تسرى بفرنساوية ، فحملت منه ، ثم انطلقت الى بلادها ، فبقى الاسم فى أولادها وذراريها الى الآن ٠ ثم انى كما تعرفت به تعرفت بسائر أقاربه ، ومازلت معهم على الصحبـة الأكيـدة مدة اقامتى فى « باريس » ، فلما سافرت كان عند أخيه المأمور فى اقليم الترك فى مدينة يقال لها « البى » فأرسل الى هذا المكتوب ، وهذه صورة ترجمته ، مع بعض حذف جائز ٠

الى حضرة عزيزنا الشيخ رفاعة

قد سلمت أمانتك لابن شيخ المأمورية ، ليعطيها لك ، فانتظرها بعد وصول هذا المكتوب بزمن يسير ، وقد وكلنى أخى بأن أخبرك بثنائه عليك على ما صنعته معه من الجميـل فى اعارتك له هذه الأمانة ، وأن أهنيك على بلوغك المأمول ٠

---

(١) Département أى اقليم ٠

هل عن قريب تفارقنا لترى وطنك العزيز ؟ فان شاء الله تجتمع بما تركته فيه من الأقارب والأحباب ، وتجده بخير ، فقد بلغنى أن سفرك قد قرب جدا ، حتى اننى لا أظن أن أقابلك فى مدينة « باريس » ولكن لو سافرت قبل هذا الزمن بيسير لاجتمعنا فى مرسيليا وودعتك فى آخر مدينة من مدن الفرنساوية تعبر فيها فى سفرك ، ولو تأخر سفرك مدة يسيرة لافترقنا فى مدينة « باريس » التى كان بها أول اجتماعنا ، ولا أدرى ان كان التلاقى مقدرا أم لا ، ولكن تقلبات الدهر كثيرة ، خصوصا للافرنج ، فلا يمكننى أن أجزم بعدم الاجتماع . وبالجملة فلا شك أنك تركت فى فرنسا صديقا يتذكرك ، ويتأثر لك بما يقع لك من النفع والضر ، ويسر غاية المسرة اذا بلغه أنك تحظى فى بلادك بثمرة فضلك وأوصافك ، وليت شعرى ترجع الى بلادك بأى اعتقاد فى طبيعة الفرنساوية ، وقد رأيت هذه الملة فى وقت ينبغى أن يكون تاريخا من غرائب سيرها ، وأظن أنك تسأل فى بلادك مرارا عديدة عن هذه الفتنة العظيمة ، ونصرة الفرنساوية فى طلب الحرية .

فاذا وقع اتفاقا أن سفرك توقف مدة أيام فمأمولى أن أراك فى مدينة « باريس » والا فأرجو منك ألا تسافر حتى تودعنى بلسان القلم بمحبتى لك غاية المحبة . انتهت صورته .

جول سلادان

وهذه صورة مكتوب تفهم منه أيضا رغبة الفرنساوية فى تحصيل الكتب الغريبة وترغيبهم للمؤلفين أو المترجمين فى ترجمة الكتب وتأليفها . وهذه صورة ترجمة هذا المكتوب :

الى مسيو الشيخ رفاعة :

قد حملنى « مسيو دبنغ » أن أسأل عن ترجمتك لكتاب العلوم الصغير المشتمل على أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم ، لأن

« مسيو دبنغ » مؤلف هذا الكتاب ، فاذا كانت ترجمتك تنطبع فى مصر هل (١) يتيسر لمؤلف الأصل أن يقيد اسـمه لتحصيل عدة نسخ من نسخ هذا الكتاب بالشراء ، ونعرفك أنك تخبرنا الى أى محل وصلت في الترجمة من المجلد الأول من جغرافية ملطبرون ، فان هذا الجزء الآن يطبع طبعا آخـر مصححا مشتملا على زيادات لاتوجد في الأول فلا بأس أن نحيطك به علما ، فانه يكمل طبعه فى أثناء هذا الشهر . ومني اليك مزيد التحية .

محبك الصادق : رنو

بخزانة الكتب السلطانية بباريز

---

(١) الصواب : فهل .

الفصل الخامس

(في ذكر ما قرأته من الكتب في مدينة ، « باريس » وفي كيفية الامتحانات ، وفيما كتبه لى « مسيو جومار » ، وفيما كتب من خلاصة الامتحان الأخير ، في الوقائع العلمية ، وأذكر هنا ما قرأته مرتبا بهذا الترتيب ، وان تكرر مع ما سبق)

تعليم أصول نحو اللغة الفرنساوية

كان خروجنا من الكرنتينة في السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٢٤١ ، وبعد أيام قليلة في مرسيليا ابتدأنا في التهجي والقراءة ، وبعد نحو أربعين يوما تعلمنا الحروف الفرنساوية والتهجي ، ووصلنا « باريس » في شهر محرم ، فرجعنا ثانيا للابتداء في أصول الهجاء ، واشتغلنا بذلك نحو شهر ، ثم ابتدأنا جميعا في قراءة أجرومية « تومند » (١) في نحو اللغة الفرنساوية ، وكان المعلم يضيف اليها من أجرومية أخرى ما يحتاج اليه الحال فلما خرجت من بيت (الأفندية) قرأت مع « مسيو شواليه » أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى « لمونرى » (٢) أجروميتين. وفي كل من البيتين ، يعنى بيت (الأفندية) وبيت المعلم كنت

(١) Charles — François Thomond : Eléments de la Grammaire françsiae. وقد كتب اسمه في المطبوعة (لومند)

(٢) Lomonry.

أشتغل بالاعراب النحوى ، والاعراب المنطقى — يعنى تطبيق الكلام على قواعد النحو وقواعد المنطق — وبالاملاء والانشـــاء والقراءة ، ومازلت على ذلك ثلاث سنوات ·

علم التاريخ

ابتدأنا في بيت (الأفندية) حين كنا معا بكتاب « سير فلاسفة اليونان » فقرأناه ، وتممناه ، ثم ابتدأنا بعده في كتاب تاريخ عام مختصر مشتمل على سير قدماء المصريين والعراقيين ، وأهل الشام ، واليونان ، وقدماء العجم ، والرومانيين ، والهنود ، وفي آخره نبذة مختصرة في علم « الميثولوجيا » (١) يعنى علم جاهليـــة اليونان وخرافاتهم ، ثم قرأت عند « مسيو شواليـــه » كتـــابا يسمى : « لطائف التاريخ » (٢) يتضمن قصصا وحكايات ونوادر ، ثم بعده قرأت كتابا يسمى « سير أخلاق الأمم وعوائدهم وآدابهم » (٣) ثم تاريخ سبب عظم دولة قياصرة الروم وانقراضها (٤) ثم كتـــاب رحلة « انخرسيس » الأصغر الى بلاد اليونان (٥) ثم قرأت كتاب « سيغور » (٦) فى التاريخ العام ، ثم سيرة نابليون ، ثم كتابا فى علم التواريخ والأنساب ، ثم كتابا يسمى « بانورما العلم (٧) »

---

(١) Mythologie.

(٢) Les Agrements de L'histoire.

(٣) Les Moeurs des Peuples Leurs habitudes et leur Savoir Vivre Par Dipping.

(٤) L'Histoir de La Cause de La grandeur et de La décadence de L'Empire des Césars Romains, par Montesquieu.

(٥) Voyage du trés Jeune Anacharsis en Grèce.

(٦) Ségur.

(٧) Panorama du Monde.

يعني مرآة الدنيا ، ثم رحلة صنفها بعض المسافرين في بلاد الدولة العثمانية ، ثم رحلة في بلاد الجزائر .

علم الحساب والهندسة

قرأت في الحساب « بزوت » (١) ، وفي الهندسة المقالات الأربع الأول من كتاب لوجندره (٢) .

علم الجغرافيا بأنواعها

قرأت مع « مسيو شواليه » كتـاب جغرافيـة يشتمل على الجغرافية التاريخية والطبيعية والرياضية والسياسية ، ثم قرأت رسالة أخرى في الجغرافية الطبيعية مقدمة لقاموس في الجغرافية ، يعني معجم البلدان ، ثم قرأت الكتاب الأول بعينه مع معلم آخر غير « مسيو شواليه » ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليـه » ، جملا عظيمة م نجغرافية « ملطبرون » (٣) ورسالة ألفها التعليم بنته في هيئة الدنيا ، وقرأت وحدي مؤلفات عديدة في هذا الفن .

فن الترجمة

ترجمت مدة اقامتي في فرنسا اثنى عشر كتابا وشذرة يأتي ذكرها في آخر هذا الكتاب ، يعني اثنى عشر مترجما بعضها كتب كاملة ، وبعضها نبذات صغيرة الحجم .

كتب في فنون مختلفة

قرأت كتابا في علم المنطق الفرنساوي مع « مسيو شواليه »

---

(١) Etienne Bezout : Traité d'arithmétique.

(٢) Legendre : Eléments de Géometrie.

(٣) Malte-Brun.

و « مسيو المونرى » وعدة مواضع من كتـاب « ليبرتروايال » (١) من جملتها المقولات وكتـــابا آخر فى المنطق يقـال له كتــــاب « قندلياق » غير (٢) فيه منطق أرسطو .

وقرأت مع « مسيو شواليه » كتابا صغيرا فى المعادن وترجمته.

وقرأت كثيرا من كتب الأدب فمنها مجموعة (٣) « نويل » ومنها عدة مواضع من ديوان « ولتير » (٤) وديوان « رسين » (٥) وديوان « رسو » (٦) خصوصا مراسلاته الفارسية التى يعرف بها الفرق بين آداب الافرنج والعجم ، وهى أشبه بميزان بين الآداب المغربية والمشرقية ، وقرأت أيضا وحــدى مراســـلات انكليزية صنفها « القونه شستر فيلد » (٧) لتربيـــة ولده وتعليمه ، وكثيرا من المقامات الفرنساوية ، وبالجملة فقد اطلعت فى آداب الفرنساوية على كثير من مؤلفاتها الشهيرة .

وقرأت فى الحقوق الطبيعية مع معلمها كتـــاب « برلماكى » وترجمته وفهمته فهما جيدا ، وهذا الفن عبـــارة عن التحســين والتقبيح العقليين ، يجعله الافرنج أساسا لأحكامهم الســياسية المسماة عندهم شرعية ، وقرأت أيضا مع « مسيو شواليه » جزأين من كتاب يسمى « روح الشرائع » (٨) مؤلفة شهير بين الفرنساوية يقال له «منتسكيو » وهو أشـــبه بميزان بين المذاهب الشرعيـــة

---

(١) La Porte - Royale.
(٢) Condiliac.
(٣) Noël.
(٤) Voltaire.
(٥) Racin.
(٦) Rousseau : Les Lettres Persanes.
(٧) Le Comte Chesterfield.
(٨) L'Esprit des Lois.

والسياسية ، ومبنى على التحسين والتقبيح العقليين ، ويلقب عندهم بابن خلدون الافرنجي ، كما أن ابن خلدون يقال له عندهم أيضا : « منتسكيو الشرق » أي « منتسكيو الاسلام » وقرأت أيضا في هذا المعنى كتابا يسمى « عقد التأنس والاجتماع الانساني » (١) مؤلفه يقال له « روسو » وهو عظيم في معناه .

وقرأت في الفلسفة تاريخ الفلاســـفة المتقدم المشتمل على مذاهبهم وعقائدهم وحكمهم ومواعظهم ، وقرأت عدة محال نفيسة في معجم الفلسفة « للخواجه ولتير » وعدة محال في كتب فلسفة « قندلياق » (٢) .

وقرأت في فن الطبيعة رسالة صغيرة مع « مسيو شواليه » من غير تعرض للعمليات .

وقرأت في فن العسكرية من كتاب يسمى « علميات ضابطان عظام » مع « مسيو شواليه » مائة صحيفة ، وترجمتها .

وقرأت كثيرا في كازيطات العلوم اليومية والشهرية ، وفي « كازيطات » (٣) السياسيات اليومية التي تذكر كل يوم ما يصل خبره من الأخبار الداخلية والخارجية المسماة « البوليتيقة » وكنت متولعا بها غاية التولع وبها استعنت على فهم اللغـــة الفرنساوية وربما كنت أترجم منها مسائل علمية ، وسياسية ، خصوصا وقت حرابة الدولة العثمانية مع الدولة الموسقوبية .

ولنذكر لك هنا ترجمتنا رسالة فرضية من فرنساوي متطوع بالخدمة في معسكر « الموسقو » ، حررها من مدينة « شملا » القريبة

---

(١) Le Contrat Social.

(٢) Condillac.

(٣) أي الصحف .

من جبل « بلقان » الى بعض امراء الألوية بمدينة « باريس » تاريخها اثنان وعشرون من يولية الافرنجى سنة ١٨٢٨ من الميلاد :

« اعلم يا محبنا أن هذه أول مرة التحم فيها صفنا مع الصفوف الاسلامية من منذ وصولنا الى العساكر الموسقوبية ، ثم ان سائر ما رأيته مما يذهل العقول ويحير الألباب ، تقصر عنه العبارة ، كيف وهو أمر غريب ! بالنسبة الى مثلى ، فلو كنت مثل جنابكم من العسكر المتمرن على الحروب سافرت فى غزوة مصر ، ورأيت واقعة أبى قير ، وحصار مدينة عكا لما حار لبى حين رأيت شيئا جديدا لم أكن عاينته قبل ذلك ، مما يكل عنه الوصف ، ولكن تأمل ياأخى فى أمرى حيث انى قد كنت فى خفر مليكنا ، وخرجت من مكتب « سنسير » ولم أحضر من الوقائع الا وقعة الأندلس ، فلم أشعر الا أن وجدت نفسى قدام جبل « بلقان » بعد أن جبت البرارى والقفار ، وعاينت المشاق بتهديد أهلها لنا وتخلصهم منا ، وادهاشهم لجيوشنا ، وانظر فى استعجابى وذهاب صوابى حين خرجت الفوارس التركية متصافة صفوفا عجيبة للحروب الاسلامية بأعلى « شملا » وقد وصل الى شريف علمكم من دفتر علم « الموسقو » تفصيل هذه الواقعة ، وشرح أحوال الجم الغفير من عساكرنا ، والخبر بأنها صارت ضائعة ، وقد شاهدت بعينى رأسى سوء ميتة « الميرالاى باردى الموسقوبى » بحالة رديئة ، حيث انقسم نصفين بضربة مدفع تركية ، ومن الآن فقط ظهرت صعوبة هذه الحرابة ، وطول مدتها لا يعد من الغرابة ، وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب ، فعساكر الاسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب . وهذه المصادمة هى التى تستهل الخطر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : الأولى : أنها تلقى الحيرة فى عقول الرجال . والثانية : أن عاقبتها دائما تفرغ الفزع فى قلوب الأعداء ، ولو كانوا من الأبطال ، ولو شاهدت

عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع (ص ١٦٢) الانسان بمجـــرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامهـــا المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الألحان الوحشـــية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية لحكمت مثلي بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول • أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة عليه بنظام غريب ؟ أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها في الاقدام والاحجام ، يبلغ عليها في الحرابة المقصود والمرام ؟ فياويح العساكر القرابة التي يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة عن قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الاسلامية والوطنية ، وهذه مزية لا توجد يقينـــا في عســـاكر « الموسقو » ، ثم ازدحام الخلائق في أوقات الحروب له تدبير صحيح، ولكن في هذه الواقعة لايجهل انســـان ولو كان من « القزاق » أن الفخر لعساكر الاسلام • وهذا الخبر ربما ظهر لك أنه عجيب من مثلي ، خصوصا وأنا قد جئت متطوعا في عســـكر « الموسقو » ، لأشاركهم في اقتحام الأخطار ، وأقتسم معهم الفخـــار ، ولـــكن لما وصلت الى هنا ظهر لي أن الظن قد خاب ، وأني قد حدت عن الصواب • ورأيت أعداءنا الذين كنا نتهمهم بحقارة الرتبة والرداءة هم الليوث الضراغم ، ليس لهم شيء من الدناءة ، بل هم أقرب الى قبول التأدب والظرافة من الافرنج •

واعلم يا أخي أن غيرتي على خلاص الأروام من يد العثمانية لم تنقص شيئا ، ولكن أقول ليت شعري ، هل تلزم الغـــارة على اسلامبول في خلاصهم ؟ أو ليس مما يتحسر عليه أن ما خسرناه في أخذ مدينة « ابرائل » من العساكر كان يكفي وحـــده في فك أسر الأروام وتحرير رقابهم ، وتقليل سفك دمائنا بعساكر الاسلام•

وقد أسرنا عن قريب أحد ضباط العساكر العثمانية ، وكان شابا بديع الصورة كثير الجروح ، فعفا عساكرنا عن قتله ولم يكن ذلك لغيره ، ورقوا لملاحته وجراحته ، فخاطبته باللغة الايطاليانيـــة ، ففهم مقالي وأجاب ســـؤالي . وأخبرني بأن أباه له من العمر الآن ثمانون سنة ، وله أخوان في خدمة حسين باشا لا يشك في نصرة الدولة العثمانية ، بل يقول : ان الترك يصلون الى موسقو . واعلم يا أخي أن في « شملا » نحـــو مائتي ألف محـــارب ، ويتجدد عليهـا كل يـوم ، وسلطانهم بكل عظيم عن يقين . وها أنا الآن أطوى لك كتــابي لأضع قدمي في ركابي ، فالآن عســـاكر الأعداء تحارب في طليعة جيشنا ، وأنا بين دوى ألحان الترك ، وعجيج أصوات الروس غريق ، وهذه حرابة مهولة ان نظرت بعين التحقيق .

الفصل السادس

(فى الامتحانات التى صنعت معى فى مدينة « باريس »
خصوصا فى الامتحان الأخير الذى أعقبه رجوعى الى مصر)

اعلم أن من عادة الفرنساوية أن لا يكتفوا فى العلم بمجرد شهرة الانسان بالفهم ، أو الاجتهاد ، أو بمدح المعلم فى المتعلم ، بل لابد عندهم من أدلة واضحة محسوسة تفيــد الحاضرين فى الامتحان قوة الانسان والفرق بينه وبين أمثاله · وهذا انما يكون بالامتحانات العامة يحضرها العام والخاص ، بدعوة مثــل دعوة الولائم عادة · وهناك امتحانات خاصــة ، وهى أن يمتحن المعــلم تلامذته كل أسبوع أو شهر ، ليعلم قوة زيادتهم فى ذلك الأسبوع أو الشهر · وليكتب مفاد ذلك الى آبائهم ، فكنا فى البنسيونات بهذه المثابة ، وكل سنة يصنع معنا الامتحان العام بحضور أعيان الفرنساوية ·

فأول بحث صنع معنا كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية، وقد جرت العادة عندهم بأنهم يعطون هدية امتحان للبارعين فى الجواب المتميزين عن غيرهم ، ففى أول امتحــان عــام بعث لى « مسيو جومار » كتابا يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان » سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب ، يصحبها هذا المكتوب الذى صورته مترجما :

أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٢٧ من الميلاد ·

قد صرت مستحقا لهدية اللغة الفرنساوية ، بالتقدم الذى حصلته فيها ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العام الأخير . ولقد حق لى أن أهنىء نفسى بارسالى لك هذه الهدية من طرف (الأفندية) النظار دليلا على التفاتك فى التعليم ، ولا شك أن الوالى يسر متى أخبر أن اجتهادك وثمرة تعلمك يكافئان المصاريف العظيمة التى يصرفهـــا عليك فى تربيتك وتعليمك ، وعليك منى الســـــلام مصحوبا بالمودة .

وقوله فى الامتحان الأخير المراد أنه آخر بالنسبة لما قبله من الامتحانات الخصوصية .

وهدية الامتحان تشبه أن تكون مثل جائزة الشعراء : أو هى كقصب السبق وفى الامتحان العام الثانى بعث لى كتـاب « الأنيس المفيـد ، للطالب المستفيد » ، و « جـامع الشذور ، من منظـوم ومنثور » تأليف « مسيو دساسى » وصحبته هذا المكتوب ، وصورته مترجمـــا .

باريس ١٥ شهر مارث سنة ١٨٢٨ من الميلاد .

قد صرت مستحقا لهدية النحو الفرنســاوى ، بالتقدم الذى حصلته فى هذه اللغة ، وبالثمرة التى نلتها فى الامتحان العـــام الأخير ، ولقد سرنى أنك صرت مستحقا أن أبعث لك علامة السرور منك ، تشويقا لك ، وها أنا باعث جدول امتحانك للوالى باجتهادك وفلاحك ، ولا شك أنه يسر بأنك تشتغل مع ثمـرة ، وأنك أهل لرعايته لك واعتنائه بتربيتك وتعليمك ، وعليك منى السلام .

وفى هذين الامتحانين أخذت هدية الامتحان .

وأما صورة الامتحـــان الأخـــير الذى به رجعت الى مصر أن « مسيو جومار » جمع مجلسا فيه عدة أناس مشاهير ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان ، وكان القصـد بهذا

المجلس معرفة قوة الفقير في صناعة الترجمة التي اشتغلت بهـــا مدة مكثي في فرنسا ٠

وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية في وقائع العلوم ما نصـــه : وصـــور التلميذ رفاعة أنه قرىء في المجلس دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديد اثنتى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمهـا المذكور منذ ســـنة وهذه أســماؤها :

الأول : نبذة في تاريخ اسكندر الأكبر ، مأخـــوذة من تاريخ القدماء ٠ الثاني : كتاب أصول المعادن ٠ الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ، ألفه « مسيو جومار » لاســتعمال مصر والشـــام ، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية ٠ الرابع : كتاب دائرة العلوم في أخلاق الأمم وعوائدهم ٠ الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية مصححة على « مسيو هنبلض » ٠ السادس : قطعة من كتاب ملطبرون (١) في الجغرافية ٠ السابع : ثلاث مقالات من كتـــاب « لجندر (٢) » في علم الهندسة ٠ الثامن : نبذة في علم هيئة الدنيا ٠ التاسع : قطعة من « علميات ضابطان عظام » العاشر : أصـــول الحقوق الطبيعية التي تعتبرها الافرنج أصلا لأحكامهم ٠ الحادى عشر : نبذة في « الميتولوجيا » يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ٠ الثـــاني عشر : نبذة في علم سياسات الصحة ٠

الدفتر الثاني : يشـــتمل على رحلتــــه ، وذكر ســـفره ثم أحضر له عدة تآليف مطبوعة في بولاق ، فترجم منهــــا مواضــــع بسرعة الى اللغة الفرنســاوية ، ثم قرأ بالفرنســـاوية مواضــــع منها ما هو صغير ومنها ما هو كبير في « كازيطة » مصر المطبوعة في

---

(١) Malt-Brun.

(٢) Legendre.

بولاق ، ثم بحث معه فى ترجمة العلميات العسكرية المترجمه له فكان بعض الحاضرين بيده الأصل الفرنساوى ، والشيخ بيده الترجمة ، ثم انه يترجم العربية بالسرعة الى الفرنساوية قراءة لا كتابة ، ليقابل عبارة الترجمة مع عبارة الأصل ، وقد تخلص على وجه حسن من هذا الامتحان فأدى العبارات حقها من غير تغيير فى معنى الأصل المترجم ، ولكن ربما أحوجه اصطلاح اللغات العربيه أن يضع مجازا بدل مجاز آخر من غير خلل فى المعنى المراد ، مثلا : فى تشبيه أصل علم العسكرية بمعدن مشبع يستخرج منه كذا غير العبارة بقوله : العسكرية بحر عظيم تستخرج منه الدرر ، وقد اعترض عليه فى الامتحان بأنه بعض الأحيان قد لا يكون فى ترجمته مطابقة تامة بين المترجم والمترجم عنه ، وأنه ربما كرر ، وربما ترجم الجملة بجمل ، والكلمة بجملة ، ولكن من غير أن يقع فى الخلط ، بل هو دائما محافظ على روح المعنى الأصلى ، وقد عرف الشيخ الآن أنه اذا أراد أن يترجم كتب علوم فلابد أن يترك التقطيع ، وعليه أن يخترع عند الحاجة تغييرا مناسبا للمقصود ، وقد امتحن فى كتاب آخر ، وهو مقدمة القاموس العام المتعلقة بالجغرافيا الطبيعية ، وهذا الكتاب ترجمه هو الى العربية ولما كان وقت ترجمة هذا الكتاب لم يصل الى درجته الآن فى اللغة الفرنساوية ، كانت ترجمته دون ترجمة الكتاب الذى بحث معه فيه قبله ، وكان عيبه أنه لم يحافظ على تأدية عبارة الأصل بجميع أطرافها • وعلى كل حال فلم يغير فى المعنى شيئا ، بل طريقته فى الترجمة كانت مناسبة ، فتفرق أهل المجلس جازمين بتقدم التلميذ المذكور ، ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج اليها فى نشر العلوم ، والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة ، ولا شك أن بعض هذه الكتب قد يحتوى على أشكال ، وأحمد أفندى العطار من أهل بلاده يشتغل بالطباعة على الأحجار

لاجل ذلك ، وقد كان حاضرا فى المجلس ، فقدم لأهل المجلس عدة عينات مطبوعة بيده على الحجر من تصوير وكتابة عربية وفرنساوية، وقد ابتدأ فى معرفة تسيير الشوكة للنقش والقلم للكتابة ، وقلم الشعر لكتابة التصوير ، وفى تصويراته توجد حيوانات (ص ١٦٦) وأمور عمارات وغير ذلك من الأمور المصنوعة بالخطوط من غير ظل ، ولكنه جاء فى فرنسا كبير السن فلم يمكنه أن يصور تصويرا صحيحا خاليا عن جميع العيوب ، ولكن يمكنه أن يعرف معرفة تامة طريق الطباعة على الحجر علما وعملا ، وينسخ (عينات) التصوير التى تعطى له ويطبعها بنفسه عند الحاجة ، ويمكنه أن يتأهل لفتح دار لطباعة الحجر ونظارتها ، وقد ترجم مختصرا فى صناعة الطباعة بالحجر وكتبها على الحجر وطبعها بيده ، وكانت نسخة منها موضوعة على (باش تختة (١)) « مسيو جومار » انتهى كلام « كازيطة » دائرة العلوم •

وكتب لى مكتوب تهنئة برجوعى الى مصر بعد تحصيل المرام غير أن هذا المكتوب قد ضاع منى وكان لا بأس بذكره هنا وصورة ترجمة ما كتبه لى « مسيو شواليه » وهو أشبه باجازة وشهادة لى :

وزارة الحرب

يقول الواضع اسمه فيه : « شواليه » تلميذ قديم من تلامذة مدرسة العلوم المسماة « بلوتكنيقا » (٢) الضابط المهندس المكتوب فى وزارة الحرب الوكيل من طرف « مسيو جومار » والأفندية النظار بالارشاد الى تعليم مسيو الشيخ رفاعة :

أشهد أنى مدة نحو الثلاث سنوات ونصف التى مكثها التلميذ

---

(١) منضد صغير ذو أدراج عدة •

(٢) مدرسة المهندسين : L'Ecole Polytechnique

المذكور عندي لم أر منه الا أسباب الرضى ســواء فى تعليمه أو فى سلوكه المملوء من الحكمة والاحتراس ، وحسن خلقه ولين عريكته ، وقد قرأ معى فى السنة الأولى اللغة الفرنساوية «والقسمغرافيا» (١) انتهى وفيما بعدها الجغرافيــا والتاريخ والحساب وغير ذلك . ولما كان خاليا عن الاستعداد والخفة اللازمين لتعلم الرســم مع ثمرة ، لم يشتغل به الا مرة فى كل أســبوع لمجرد امتثال أوامر الوالى ولكن صرف جهــده مع غاية الغيرة فى الترجمــة التى هى صنعته المختارة له وأشــغاله فيها مبينة فى اعلاماتى الشــهرية ، خصوصا فى « الجرنالات » الأولى التى أعطيتها « لمسيو جومار » وحسب هذا التلميذ ما فى هذه الاعلامات والجرنالات .

ومما ينبغى التنبيه عليه أن غيرة مسيو الشيخ رفاعة تناهت به الى أن أدته الى أن شغله مدة طويلة فى الليل تسبب عنه ضعف فى عينه اليسار ، حتى احتــاج الى الحكيم الذى نهاه عن مطالعــة الليل ، ولكن لم يمتثل لخوف تعويق تقدمه ، لما رأى أن الأحسن فى اسراع تعليمــه أن يشترى الكتب اللازمــة له غير ما سمح به (الميرى) وأن يأخذ معلما (ص ١٦٧) آخر غير معلم (الميرى) أنفق جزءا عظيما من ماهيته المعدة له فى شراء كتب ، وفى معلم مكث معه أكثر من سنة ، وكان يعطيه الدرس فى الحصة التى لا يقرأ معى فيها .

وقد ظننت أنه يجب على وقت سفره أن أعطيه هذا الاعلام الموافق لما فى الواقــع ونفس الأمر ، وأن أضيف الى ذلك الافصاح عما فى ضميرى من كمال اعتقاد فضله ومحبته .

مسيو شواليه

٢٨ فى شهر فبريه سنة ١٨٣١

---

(١) L Cosmogsaphier. علم الفلك .

المقالة الخامسة

(فى ذكر ما وقع من الفتنة فى فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر ، وانما ذكرنا هذه المقالة لأنها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه) :

الفصل الأول

(فى ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم) .

اعلم أن هذه الطائفة متفرقة فى الرأى فرقتين أصليتين . وهما : الملكية والحرية . والمراد بالملكية أتباع الملك القائلون بأنه ينبغى تسليم الأمر لولى الأمر ، من غير أن يعارض فيه من طرف الرعية بشىء . والأخرى تميل الى الحرية ، بمعنى أنهم يقولون : لا ينبغى النظر الا الى القوانين فقط ، والملك انما هو منفذ للأحكام على طبق ما فى القوانين ، فكأنه عبارة عن آلة ، ولاشك أن الرأيين متباينان ، فلذلك كان لا اتحاد بين أهل فرنسا ، لفقد الاتفاق فى الرأى . والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم ، وأكثر الحربين من الفلاسفة والعلماء والحكماء وأغلب الرعية ، فالفرقة الأولى تحاول اعانة الملك ، والأخرى ضعفه واعانة الرعية . ومن الفرقة الثانية طائفة عظيمة تريد أن يكون الحكم بالكلية للرعية ، ولا حاجة الى ملك أصلا . ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة ،

ويجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم ، وهذا هو حكم الجمهورية ويقال للكبار : مشايخ وجمهور •

وشريعة الاسلام التى عليها مدار الحكومة الاسلامية مشوبة بالأنواع الثلاثة المذكورة لمن تأملها وعرف مصادرها ومواردها ، فعلم من هذا أن بعض الفرنساوية يريد المملكة المطلقة ، وبعضهم يريد المملكة المقيدة بالعمل بما فى القوانين،وبعضهم يريد الجمهورية، وقد سبق للفرنساوية أنهم قاموا سنة ١٧٩٠ من الميلاد وحكموا على ملكهم وزوجته بالقتل ، ثم صنعوا جمهورية ، وأخرجوا العائلة السلطانية المسماة « البربون » من مدينة« باريس »وأشهروهم مثل الأعداء ولازالت الفتنة باقية الأثر الى سنة ١٨١٠ ميلادية ، ثم تسلطن « بونابارته » المسمى : « نابليون » وتلقب بسلطان سلاطين : ثم لما كثرت محارباته ، وكثر أخذه للممالك وخيف بأسه وبطشه تعاهد عليه ملوك الافرنج ، ليخرجوه من المملكة ، فأخرجوه منها : مع محبة الفرنساوية له ، وأعادوا البربون الى محلهم رغما عن أنف الملة الفرنساوية ، فكان أول من تسلطن منهم « لويز الثامن عشر » ولأجل ترغيب الناس فى حكمه وتمكين ملكه صنع قانونا بينه وبين الفرنساوية بمشورتهم ورضائهم ، وألزم نفسه أن يتبعه ولا يخرج عنه ، وهو الشرطة،وقد ذكرناها مترجمة فى باب سياسة الفرنساوية، ولاشك أن وعد الكريم ألزم من دين الغريم • وقد جعل هذا القانون له ولمن بعده من ورثة مملكة الفرنساوية ، وأنه لايزاد فيه ولا ينقص الا اذا اتفق عليه الملك وديوان « البير » وديوان وكلاء الرعية ، فلابد من الديوانين والملك ، ويقال انه صنع ذلك على غير مراد أهله وأقاربه، وهم يحبون التصرف المطلق فى الرعية ، ويقال : انهم تعصبوا عليه ، وكان رئيس العصبة أخاه « كرلوس العاشر » حتى انه اطلع على ما أخفاه له فأبطله ،: ويقال ان « كرلوس العاشر » أرادفى « كبرلويز الثامن عشر » أن ينقض ذلك القانون ، ويرجع الى طريق اطلاق

التصرف ، فلم يمكنه ذلك ، ثم بعد موت أخيه أظهر « كرلوس » الحيلة، وأبطل ما كان نواه ، وأظهر أنه لا يريد شيئا من ذلك ، وجوز لكل انسان أن يبدى فى الكازيطات رأيه بالكتابة من غير أن ينظر فيه قبل طبعه واظهاره فصدق الناس كلامه واعتقدوا أنه لا يخلف وعده ، بل فرحت سائر الرعية بتدبيره ومشيه على القوانين ، ثم انه انتهى أمره الى أن هتك القوانين التى هى شرائع الفرنساوية وخالفها ، وقبل هتكه للشريعة بانت منه أمارات ذلك بمجرد تقليده الوزارة للوزير : « بولنياق » وهو معلوم المذهب والتدبير ، يعنى أنه يميل الى كون الأمر لا يكون الا للملك ، ويقال : ان هذا الوزير هو ابن زنا ، زنت أمه بهذا الملك ، فولدته منه ، فهو فى الحقيقة أبوه ، وشهير بالظلم والجور ومن الحكم التى فى غاية الشيوع : أن ظلم الاتباع مضاف الى المتبوع • وفى الحديث : من سل سيف الجور سل عليه سيف الغلبة، ولازمه الهم • وقال الشاعر :

من أنصف الناس،ولم ينتصف بفضله منهم فـذاك الأمير
ومن يرد انصافه مثل ما أنصف ، أضحى ماله من نظير
ومن يرد انصافه ، وهو لا ينصفهم فهو الدنىء الحقير

ولما كان هذا الوزير سابقا « ايلجيا » ببلاد الانكليز من طرف الفرنساوية ، يعنى رسولا للمصالح بين الدولتين ، كانت الفرنساوية تنسب اليه كل ما خالف مذهب الحرية • وكلما شاع عنه أنه راجع الى فرنسا يظن جميع الناس أنه لايأتى الا ليتقلد منصب الوزارة ويغير القوانين ، فلذلك كان يبغضه سائر أرباب الحرية وأغلب الرعية • وقد عرف الفرنساوية من قبل أن اختياره للوزارة كان مقصودا لهم ، وقد حصل بعد توليته بنحو سنة •

وقد قلنا فيما سبق : ان ديوان رسل العمالات الذين هم وكلاء الرعية يجتمعون كل سنة للمشورة العمومية • فلما اجتمع هذا الديوان عرضوا على الملك أن يعزل هذا الوزير ومن معه من الوزراء

الستة ، فلم يصغ لكلامهم أصلا ، وقد جرت العادة أن ديوان المشورة يعمل فيه جميع الأشياء بمقالة أكثر أربابه ، وكان المجتمع في هذا الديوان للمشورة في قضية الوزراء أربعمائة وثلاثون نفسا ، منها ثلثمائة لا يرضون بابقاء الوزراء ، ومنهم مائة وثلاثون يحبون ابقاءهم ، فكان العدد الأكثر عليهم ، والعدد الأقل لهم ، فتيقنوا عزلهم ، وكان الملك يحب ابقاءهم ، لاستعانته بهم على تنفيذ ما أضمره في نفسه فأبقاهم ، ثم خرم القانون بعدة أوامر ملكية فكانت عاقبتها خروجهم واخراجهم له من بلادهم معزولا ، فهو كما قال الشاعر :

لم يدر مايجنى عليه القول ... ولا لماذا أمره يؤول
يلقى الكلام كيف ما ألقاه ... لم يحسن الفكرة في عقباه
وهكذا التهوير في المقال ... وصحبة الأشرار والجهال
يخفضك الجاهل أنى رفعك ... يرديك وهو زاعم أن ينفعك

الفصل الثانى

(فى ذكر التغيرات التى حصلت وما ترتب عليها من الفتنة)

قد سبق لنا من القوانين السالفة فى الكلام على حقوق الفرنساوية فى المادة الثامنة أنه لايمنع انسان فى فرنسا من أن يظهر رأيه ، ويكتبه ويطبعه ، بشرط أن لا يضر ما فى القوانين ، فان أضر به أزيل ، فلما كانت سنة ١٨٣٠ ، واذا بالملك قد أظهر عدة أوامر ، منها : النهى عن أن يظهر الانسان رأيه ، وأن يكتبه أو يطبعه بشروط معينة ، خصوصا « للكازيطات » اليومية ، فانه لابد فى طبعها من أن يطلع عليها أحد من طرف الدولة ، فلا يظهر منها الا ما يريد اظهاره ، مع أن ذلك ليس حق الملك وحده ، فكان لايمكنه عمله الا بقانون ، والقانون لا يصنع الا باجماع آراء ثلاثة : رأى الملك ورأى أهل ديوانى المشورة يعنى ديوان البير ، وديوان رسل العمالات ، فصنع وحده مالا ينفذ الا اذا كان صنعه مع غيره ، وغير أيضا فى هذه الأوامر شيئا فى مجمع اختيار رسل العمالات ، يعنى فى الذين يختارون رسل العمالات ليبعثوها فى « باريس » وفتح ديوان العمالات قبل أن يجتمع مع أنه كان حقه ألا يفتحه الا بعد اجتماعهم كما فعله فى المرة السابقة ، وهذا كله على خلاف القوانين. ثم ان الملك لما أظهر هذه الأوامر كأنه أحس فى نفسه بحصول مخالفه ، فاعطى المناصب العسكرية لعدة رؤساء مشهورين بأنهم أعداء للحرية ، التى هى مقصد رعية الفرنساوية ، وقد ظهرت هذه

الأوامر بغتة حتى ظهر أن الفرنساوية كانوا غير مستعدين لها ، وبمجرد حصول هذه الأوامر قال غالب العارفين بالسياسيات : انه يحصل في المدينة محنة عظيمة يترتب عليها ما يترتب ــ كما قال الشاعر :

أرى بين الرماد وميض جمـــر ويوشـــك أن يكون له ضرام
فان النـــار بالعيدان تذكو وان الحرب أولهـــا الكلام

ففي مساء اليوم الذى ظهرت فيه هذه الأوامر في « الكازيطات » أخذ الناس في الحركة بقرب المحل المسمى بالروايال « يعنى » السراية السلطانية التي سكنها عائلة أقارب الملك المسماة « عائلة أورليان » التي منها الملك الآن ، وهذا الوقت ظهر الغم على وجوه الناس ، وكان هذا يوم السادس والعشرين في شهر يولية ، وفي يوم السابع والعشرين منه لم يظهر غالب « كازيطات » الحرية لعدم رضائهـــا بالشروط ، فلـذلك بلغت الأوامـر جميـــع النـاس وحصلت حـركة عظيمـة بعـدم ظهـور « الكازيطـات » التي من عادتها أنها لاتفتر عن الظهور الا لمهم عظيم ، فأغلقت « الورشات » والمعامل (والفبريقات) والمدارس ، فظهر بعض كازيطات الحرية آمرة بعصيان الملك والخروج عن طاعته ، ومعددة لمساويه وفرقت على الناس من غير مقابل ، وبهذه الديار ، بل وفي غيرها قد يبلغ الكلام ، حيث تقصر السهام ، خصوصا مادة الخطات ، فانها قوية وخصوصا بلاغة الانشاء ، فلها مدخلية عظيمة كما قيل : ان نزل الوحي على قوم بعد الأنبياء نزل على بلغاء الكتاب ! خصوصا اذا كان ما يذكر في تلك اليوميات مقبولا عند العامة ، ومقصـــودا عنـد الخاصـــة ، فان هذا هو عين البلاغة الصحيحة ، اذ هي ما فهمته العامة ، ورضيت به الخاصة ، فلما سمع بذلك ولاة الحسبة حضروا في المحال العامة ، ومنعوا الناس من قراءة هذه « الكازيطات » ، وحاصروا مطابعها ، وهموا بكسر آلات الطباعة ، وكسروا بعضها ،

وحبسوا من اتهموه من الطباعين ، (وبهدلوا) كثيرا ممن أظهــر شيئا مخالفا لترتيب الملك من الرعية ، وهذا أيضا مما قوى غضب الفرنساوية ، فكتب أرباب هذه الكازيطات يعنى رؤساء الفرنساوية الذين هم يكتبون فيها آراءهم « ورقة انكار » وأشهروها وعددوا نسخها ، ولصقوها بجدران المدينة وأمروا فيها الرعية بالحرب ، وعينوا محــله ، وكان الميعاد فى درب « سراية باليروايال » (١) فازدحـم فيه كثير من الأمم ، وفيمــا حوله من الحارات ، فكانت العساكر السلطانية تحــاول تفريق هذا الازدحام ، فعظـم دوى الرعية ، وكثرت أصواتهم ، وظهر غضبهم فى ســـائر الدروب والحارات، فهجم العسكر على الرعية ، والتحم القتال بين الفريقين ، فكانت الرعية تقاتل أولا بالأحجار ، والعساكر بالسيوف وآلات الحــرب ، فكثر القتـــال وعظمت المطاردة من الجانبين ، ثم بحث الرعية عن آلات الحرب ، وظهر صوت البـــارود من الجانبين ، فى مدينة « باريس » فكأنما لسان حال الفرنساوية الذى هو أصدق من لسان مقالهم جعل يقول :

★ ان بنى عمك فيهم رماح ★

فعظم القتال وكان أكثر المقتول والمجروح من الرعية ، كما قال الشاعر :

فالحرب تنكح ، والنفوس مهورها
مابــين أبــكار تزف وعـــون

وترى الدماء على الجراح طوافيا
وكأنهــا رمد بنجــل عيــون

---

(١) Le Sérail Palais Royal.

فاشتد غضبهم ، وعرضوا القتلى فى المحال العامة ، لتحريض الناس على القتال ، واظهار عيوب العساكر . وقامت أنفس الناس على ملكهم ، لاعتقادهم أنه أمر بالقتـــال ، فما مررت بهذا الوقت بحارة الا وسمعت فيها : السلاح ! السلاح ، أدام الله الشرطة ، وقطع دابر الملك ! فمن هذا الوقت كثر سفك الدماء ، وأخذت الرعية الأسلحة من السيوفية بشراء أو غصب . وأغلب العملة والصنائعية خصوصا الطباعين هجموا على (القرقولات) وخانات العســاكر ، وأخذوا منها السلاح والبارود ، وقتلوا من فيها من العســـاكر ، وخلع الناس شعار الملك من الحوانيت والمحال العامة ، وشعار ملك الفرنسيس هى صورة « زهر الزنبق » ، كما أن شـــعار ملك الاسلام « صورة هلال » وملك الموســـقوبية « صورة عقـاب » ، وكسروا قناديل الحارات وقلعوا بلاط المدينة ، وجمعوه فى السكك المطروقة ، حتى يتعذر مشى الفرسان عليه ، ونهبوا (جبخانات) البارود السلطانية . فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك ، وهو خارج أمر بجعل المدينة محاصرة حكما ، وجعل قائد العسكر أميرا من أعداء الفرنساوية مشهورا عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع أن هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأى ، فانه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح، فان عفو الملك أبقى للملك ! ولما ولى على عساكره الا جماعة عقلاء ، أحبابا له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، ولكن أراد هلاك رعاياه حيث نزلهم بمنزلة أعدائه ، مع أن استـصلاح العـدو أحزم من استهلاله ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحـلم وبالحيـاء والرفق بالمذنب ، والاغضاء
ان لم تقل عشرة من يقال يوشك أن يصيبك الجهال

فعاد عليه ما فعله بنقيض مراده ، وبنظير ما نواه لأضداده ، فلو أنعم فى اعطاء الحرية ، لأمة بهذه الصفة حرية . لما وقع فى

مثل هذه الحيرة ، ونزل عن كرسيه في هذه المحنة الأخيرة ، لاسيما وقد عهد الفرنساوية بصفة الحرية وألفوها ، واعتادوا عليها وصارت عندهم من الصفات النفيسة ، وما أحسن قول الشاعر :

وللناس عادات وقد ألفوا بها   لهـا سنن يرعونها وفروض
فمن لم يعاشرهم على العرف بينهم   فذاك ثقيل عندهم وبغيض

وفي اليوم الثامن والعشرين أخذت الرعية من يد العساكر محلا يسمى : « دار المدينة » الذي هو محل شيخ مدينة باريس ، فعند ذلك ظهر الخفر الأهلي يعني « الرديف » (١) وهم عساكر كانت سابقا تخفر الأهالي ، كما أن للملك عساكر (ورديان) (٢) تخفره وقد كان أبطلهم الملك « شرل » أو « كرلوس العاشر » فلما وقعت الفتنة ظهروا ليمانعوا عن الرعية ، فشهروا أسلحتهم للقتال ، وطردوا سائر العساكر من محلهم ، وأحرقوا كثيرا منها ، وفي هذه الأوقات ارتفعت المحاكم ، وصار الحاكم هو الرعية ، ولم يمكن للدولة عمل شيء ، فقد بذلت ما عندها من القوة لاخماد ذلك وتسكينه فلم تقدر عليه ، فكان جميع المحافظين متحركين ، و (الطبجية) (٣) معينة لاثنى عشر ألفا من الورديان السلطاني ، وستة آلاف من عساكر الصف ، فكانت جملة العساكر السلطانية ثمانية عشر ألف نفس غير الطبجية والمحافظين ، وكان من يحمل السلاح من الرعية أقل من هذا العدد ولكن من لايحمل السلاح يحارب بالأحجار ، أو يعين المتسلح . وبعد أخذ دار المدينة وسلب مدفع من العساكر الحربية ظهر انهزام سائر العساكر السلطانية

---

(١) الرديف : الجند الاحتياطي .
(٢) يريد بهم الحرس .
(٣) رجال المدفعية .

بالبلدة ، ثم ذهبوا الى الديوان المسمى « لوور » (١) والى قصر « طويلريا » (٢) وهو (سراية الملك) ووقع الحرب فيهما بين العساكر وأهل البلد ، وبينما هم فى الحرب بهذا المحل اذ انتشر البيرق المثلث الألوان الذى هو علامة الحرية على الكنائس والهياكل العامة ، ودقت نواقيس الخطر لاعلام سائر الناس داخل وخارج « باريس » من أهل المدينة أو غيرها ، بطلب حمل السلاح منهم للاستعانة على العساكر ، فلما رأت العساكر أن النصرة للرعية ، وأن ضرب السلاح على أهل بلادهم وأقاربهم عار عليهم امتنع أغلبهم ، وعزل كثير من رؤسائهم نفسه من منصبه ، وفى اليوم التاسع والعشرين فى الصباح ، ملك أهل البلد ثلاثة أرباع المدينة ، ووقع أيضا فى أيديهم قصر « طويلريا » و « لوور » فملكوهما ، ونشروا عليهما بيرق الحرية ، فلما سمع بذلك سر عسكر المأمور بادخال أهل « باريس » فى طاعة السلطان ، رجع ، فكان هذا تمام نصرة أهل البلد ، حتى ان العساكر دخلت تحت (بيرق) الرعية ، ومن هذا الوقت ترتب حكم وقتى وديوان مؤقت ، لنظم البلاد حتى ينحط الرأى على تولية حاكم دائم ، وكان رئيس هذا الحكم المؤقت سر عسكر ، المسمى « لافييته » (٣) وهو الذى قاتل فى الفتنة الأولى للحرية أيضا ، وهذا الرجل شهير بأنه يحب الحرية ، ويحامى عنها ، ويعظم مثل الملوك بسبب اتصافه بهذا الوصف وكونه على حالة واحدة ومذهب واحد فى « البوليتيقة » وليس صاحب قريحة ، مستخرجا للعلوم من حيز العدم كغالب رجال الفرنساوية ومشاهيرهم ، خصوصا فى العلوم العسكرية ، ولكن

---

(١) Louvre.

(٢) La Palais des Tuileries.

(٣) La Fayette

أعظم الناس مقاما ، لاقريحة وفهما ، وليس المراد القدح في معرفته، بل في انتهاء الرياسة اليه ، ومما يشاهد في سائر بلاد الدنيا أن التصدر ليس دائما على قدر المعرفة وان كانت المعرفة موجبة له بالشرع والطبع ، ومن الغريب أن مثل هذا الأمر يقع أيضا في البلاد الحسنة التمدن ، وأظن أن هذا كله مصداق الحديث الشريف الذى هو « ذكاء المرء محسوب عليه من رزقه » وكما قال الشاعر :

اذا أبصرت ذا فضل فقيرا　　فلا تعجب لفقر في يديه
فقد قال النبي مقال صدق　　ذكاء المرء محسوب عليه

وما أحسن قول الشاعر :

ولو أن السحاب همى بعقل　　لما أروى مع النخل القتادا
ولو أعطى على قدر المعالي　　سقى الهضبات واجتنب الوهادا

الفصل الثالث

(كيف كان يصنع الملك في هذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح ، بعد فوات أوانه ، وفي خلعه المملكة على ابنه)

اعلم أن أوامر الملك برزت منه وهو في بلدة « سنكلو » على القرب من باريس ، فالفتنة حصلت في باريس ، والملك لم يكن بها ، ثم ان أهل المدينة بعثوا له أن يغير وزراءه ، وأن يسترد أوامره ، ويسترجعها ، يعني أن يكتب أمرا بأنه أعاد اليه ما كان أمر به فلم يرض بذلك ، وأرسلوا اليه في ذلك عدة وكلاء ، ليستعطفوه ، ويترجوه في هذا المعنى ، فلم يفد كلامهم ، بل كان : أضيع من دمع على طلل ، وأخبروه أن الرعية لا تريد ذلك أبدا ، وأنه ربما ترتب عليه فساد أعظم من ذلك ، فأجاب بأن كلامه غير قابل للتغيير والتبديل ، فلما تحقق عنده أن دولته قد أشرفت على الزوال بسبب عدم قبوله للمصالحة ، أرسل يطلب منهم ذلك بنفسه ، فأجابوه بأنه لم يبق محل للصلح ، وأن أوان الصلح قد فات ، وأنه لم يتبصر في العواقب ، ومن لم يتبصر في العواقب لقي النوائب . وأنه لم يدقق النظر ، والا لما حصل له ذلك [الضرر] وفي اليوم الثلاثين من شهر يولية اتفق رأي أهل مشورة رسل العمالات على أن يبعثوا ليتوجوا « الدوق درليان » قريب السلطان من بدنة ثانية بأن يكون قائم مقام المملكة ، حتى تقع

مشورة أخرى على من يتولى مملكتهم وكان خارج « باريس » فبمجرد ما وصله ما اقتضاه نظر هذه المشورة وصل الى « باريس » فى الحادى والثلاثين ، ونزل فى دار المدينة ، وأجاب برضائه بما صنعه أهل هذا الديوان وعند دخوله شرع يذكر عبارة عظيمة فى السبب الحامل له على الرضاء بذلك ، وملخصها : أنه قد حصل لى غاية التحسر على الأمر الذى جعل « باريس » فى هذه الحالة المسببة عن خرم القوانين أو تفسيرها بمعنى يشنع تحتمله عباراتها ، ولقد امتثلت وجئت بينكم لأخلص البلاد من الفشل ، ولابد أن ألبس معكم علامة الثلاثة ألوان التى قد لبستها كثيرا فى أول عمرى ، ثم ختم عبارته بقوله : والشرطة تصير من هذا الوقت حقا . يعنى أنه يعمل بقوانين المملكة ، وتصير متبعة لايحاد عنها لكونها حقا ، ولقد صارت هذه الجملة عند الفرنساوية مثلا من الأمثال ، وألفاظها بالفرنساوية فى غاية الحماسة ، ثم ان « شرل » العاشر ظن أنه يمكنه التخلص من زوال مملكته بخلع المملكة على ابنه ونزوله عنها له : شعر :

يودلو أن أيام الحمى رجعت وقل أن رد شيء بعد ما ذهبا

فما كان ذات يوم فى « سنكلو » (١) الا وخرج ابنه « الدوفين » (٢) فى ساحة ، وجمع فيها العساكر ، وأعلمهم بأن أباه ولاه ملكا ، فتلقت العساكر هذا الخبر باستخفاف وبغير اعتناء ، ثم ان الملك لما ولى ابنه سافر مع ديوانه وجلسائه فى ليلة التاسع والعشرين من شهر يولية ، وبقى الدوفين وحده ينتظر عاقبة توليته ، فأحضر جميع من معه من العساكر ، وسيرها قدامه ، ليرى كيفيتها ، فلما علم أنها لا ترضى بالمحاربة معه ، نوى

---

(١) Saint cloud.

(٢) لقب ولى عهد فرنسا » Le Dauphin.

السفر ، وخرج من « سنكلو » فبعد عدة ساعات من خروجه ، انتشر على قصر « سنكلو » (البيرق) المثلث ، وهذا القصر هو (سراية) السلطان في هذه البلدة ، فوصل السلطان وأتباعه فى « رنبوليا » (١) فى غرة شهر أغسطوس ، وفى اليوم الثانى من هذا الشهر بعث « شرل » العاشر وابنه « الدوفين » ورقة « للدوق درليان » (٢) قريبهما يذكران فيها أنهما خلعا المملكة على الدوق « دبردو (٣) حفيد الملك ، وابن أخى الدوفين » وأنهما جعلا « الدوق درليان » وكيله ووليه ، حتى يبلغ رشده ، وطلبـا منه فى هذه الورقة أن يبعث لهما جماعة ، ليؤمنوهما في خروجهما من فرنسا ، فعرض « الدوق درليان » ذلك على مشورة رسل العمالات فلم يرضوا بخلع المملكة ، ورضوا بأن يبعثوا له عدة وكلاء من الكبار ، ليؤمنوه فى خروجه من فرنسا ، ثم انه جاء الخبر في « باريس » أن الملك لم يرض الخروج حالا ، فوجهوا اليه جملة من العساكر ، ليكرهوه حالا على الخروج ، فبمجرد سماعه بذلك أجاب بالخروج متوجها الى بلاد الانكليز .

شـعر :

والدهـر طـورا بعز   يقضى ، وطـورا بهـون

وهكذا حال الدنيا ، وأحسن ما قيل فى التسلية والصبر على مكارهها قول بعضهم :

سلا بنفسى عن الدنيا وبهجتها   أنى أرى فانيـا منها تلافانى
والصبر أحمد ما أوليت من قلق   ما كنت فى شدة الا تلافانى

وفى هذا الوقت كان ابن عمه قائم مقام المملكة « بباريس » فكان الأمر والنهي له وللدواوين المشورة ، فأول ما صـنعه تقرير

---

(١) Rambouillet.

(٢) Le Duc d'Orléens.

(٣) Duc de Bordeaux.

بقاء الثلاثة ألوان التى هى علامة على حرية الملة الفرنســاوية ، ثم فتح ديوان مشورة العمالات وديوان مشورة البير ، وقد جرت العادة أنه عند فتح ديوان مشورة العمالات يحضر الملك ، ويخطب على منبر بكلام فصيح ، يذكر فيه ما صنعه من التحسين في بلاده ، وما هو عازم على فعله فى سنته ، ولما كان هذا الدوق قائما فى هذا الوقت مقام الملك صعد على المنبر يقول كلاما وجيزا مضمونه :

أنه يتحسر على الخطر الذى حصل لمدينة « باريس » عقب هتك قوانين المملكة ، تم بعد فراغه سلم لديوان المشورة الورقة التى بعثها له « كرلوس » العاشر وابنه « الدوفين » المتضمنة لخلعهما المملكة على الدوق « دبردو » وأنهما يسميانه « هنرى » الخامس ، لأنه تقدم فى فرنسا أربعة ملوك كل منهم يسمى : « هنرى » ثم خرج قائم مقام المملكة من المشورة ، وصار ديوان المشــورة يفتح كل يوم للتدبير .

الفصل الرابع

(فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على هذه الفتنة من تولية الدوق دورليان ملك الفرنساوية)

اعلم أن المشورة كانت تدبر حالة فرنسا المستقبلة . وقد أسلفنا أن آراء الفرنساوية مختلفة ، حتى انهم في المشورة مختلفون فى الموضع ، فمنهم الملكية يجلسون فى الجهة اليمنى ، والحريون فى الجهة اليسرى ، والتابعون لآراء الوزراء فى الجهة الوسطى ، وكل منهم يقول رأيه من غير معارض له ، لأن العبرة بكثرة الأصوات ولا زال هذا الأمر ، معمولا به الى الآن ، ولم تغير الفتنة شيئا من ذلك ، فكان أصحاب الآراء فرقتين : فرقة تريد المملكة ، وفرقة تريد الجمهورية ، والفرقة الأولى منها من كان يريد تمليك الدوق « دوبردو » حفيد الملك القديم ، ومنهم من كان يريد تولية ابن « نابليون » الذى هو « بونابارته » ومنهم من كان يريد تمليك « الدوق درليان » قائم مقام المملكة ، وعائلة « درليان » هى العائلة الثانية الوارثة للمملكة ، بعد انقراض العائلة الأولى البكرية ، وهى عائلة « البربون » ثم انه ظهرت ورقة مطبوعة ، وألصقت فى الحارات والشارع العامة ، مضمونها ، قد صح بالتجربة أن الجمهورية لا تناسب بلاد الفرنساوية ، وأما الدوق دبردو فتوليته تجعل الفرنساوية تحت حكم « البربون » فتقع الفرنساوية فيما فرت منه ، وأما ابن نابليون فهو تربية قسيسين وهم أعداء الحرية فتعين « الدوق درليان » انتهت .

وقد دبرت المشورة عدة مواد انحط عليها الرأى ٠

المادة الأولى : أن الكرسي فارغ حسا ومعنى ، ولاحق لأحد فيه فلابد من شغله بأحد ٠ الثانية : من أغـــراض الفرنســـاوية ومن مصالحهم أن تحذف العبارات الداله على الاســـتعلاء من الشرطة ، التى هي كتـــاب قوانين المملكة ، لأن بقـــاءها بهذه الكيفية يحط بمقام الرعية الفرنســـاوية ، ولا بد أن يحذف من الشرطة بعض المواد الغير اللائقة وتبدل بغيرها ، حتى تكون مصلحة على ما تقتضيه الحال الراهنة ، ثم بعد تمام ذلك طلب ديوان مشورة وكلاء الرعية أن المصلحة العامة اللازمة حالا لجميع الفرنساوية أن يترجى حضرة سعادة « الدوق درليان لويز فليب » قائم مقام المملكة ، لأن يكون ملكا وتكون مملكته وراثة بعده لأولاده الذكور ، ثم بعـــده لأكبر أولاده ، وهكذا ٠ يعنى أن، الملك اذا مات انتقلت المملكة لأكبـــر أولاده ، فاذا مات أو حصل له عذر كانت لابنه الأكبر ، وهكذا ، وأن يقبل المملكة ويرضى بالشروط ، وبصيغة المبايعة التى يعينها له أهل المشورة ، وأن يلقب بملك الفرنساوية ، لا بملك فرنســـا ، والفرق بينهما أن ملك الفرنساوية معناه كبير على نفس الأشخاص بجعلهم له ملكا ، بخلاف ملك فرنسا ، فان معناه أن أرض فرنسا مادامت باقية فهو سيدها وملكها ، ولا منازع له من أهـــل بلاده فيها وسبب ذلك أن الملوك السالفين كانوا يلقبون ملوك فرنسا ، وكان اذا كتب الواحد منهم يقول ما صورته : أنا فلان بفضل الله تعالى ملك فرنسا « ونوار » (١) على كل من يـــرى هذه الأوامر الحاضرة سلام قد أمرنا ونامر بما سيأتى لنـــا ٠ وقوله : ملك فرنسا ظاهر ، وأما قوله « ملك نوار » فان هذا لقب اصطلاحى له ، لمجرد الشرف : وسبب ذلك أن أسلاف ملك فرنسا كانوا يحكمون

---

(١) Navarre.

الا بالقوانين المسطورة وعلى طريقها ، وأن أعطى كل ذى حق حقه ، بما هو ثابت في القوانين ، وأن أعمل دائما على حسب ما تقتضيه مصلحة الرعية الفرنساوية وسعادتها وفخرها ، ثم صعد على كرسى المملكة ، وشرع يقول : ياساداتنا ، قد حلفت فى هذا الوقت يمينا عظيما ، وما جهلت بالواجبات المرتبة به على ، مع عظمها واتساعها ، لما أن نفسى تحدثنى أننى أوفى بها ، وما قبلت المبايعة الا عن رضى ، وقد كنت عزمت على ألا أركب أبدا الكرسى الذى أعطتـــه لى الملة الفرنساوية ، ولكن لما رأيت أن فرنســـا قد جرحت حريتهـــا ، وتكدرت الراحة العامة بأرضها ، وبهتك قوانين المملكة قد أشرفت على الفساد ، وجب نصب القوانين ، وكان ذلك من وظيفـــة ديـوان « البير وديوان رسل العمالات » ، وقد وفيتهم بذلك ، فما صنعناه من اصلاح الشرطة يستلزم الأمن فى المستقبل فمأمولى أن فرنســا تصير مرتاحة في داخلها ، ومحترمة فى خارجها ، والصلح فى بلاد أوروبا يزيد ثباتا ، فلما فرغ من كلامه صاحت الأصوات : حفظ الله الملك « لويز فليب الأول » ، ثم سلم الملك على المجلس ، وخرج ، مصافحا من رآه من أهل المجلس وغيرهم ، وركب حصانه ، ومشى ، وصار يصافح الناس عن يمينه وعن يساره ، وربما عانق كثيرا من الناس ، وكان موكبه مؤلفا من أهل البلد ، ومن خفر الملة المسمى الخفر الأهلى يعنى « الرديف » ولما دخل الليل نورت باريس بوقدة عظيمة وكان تملكه فى السابع من شهر أغسطوس ســـنة ١٨٣٠ من الميلاد .

الفصل الخامس

فيما حصل للوزراء الذين وضعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية التى كانت السبب فى زوال مملكة الملك الأول الذى فعل فعلته ، وفى العواقب لم ينظر ، وطمع بما لم يظفر ، كمـــا قال الشاعر :

ان النفوس على اختلاف طباعها   طمعت من الدنيا بما لم تظفر

اعلم أن الفرنساوية بعد هذه الفتنـــة اهتموا غاية الاهتمام بالتفتيش على الوزراء الذين كانوا السبب فى ذلك ، وأيضا فانه بمقتضى القوانين أن الوزراء يضمنون ما يقع فى المملكة من الخلل فهم المحاسبون دون الملك : وليس على الملك شىء أصلا ، فحملهم ثقيل ، ووظيفتهم شاقة التحمل ، فعليهم الوزر فى كل ما يحدث ، قال الشاعر :

يتداول الناس الرياسة بينهم   وأريد حظهمو فلا أسطيع
وأكلف العبء الثقيل وانما   تبلى به الأتباع لا المتبوع
فعليهم الأثقال يرمى حملها   وعلى الرئيس الختم والتوقيع

فبرزت الأوامر فى جميع طـرق البلاد أن يوقفوهم اذا مروا عليهم ، وقد قلنا : ان رئيس الوزراء كان « بولنيـــاق » فمسك من الوزراء أربعة منهم هذا الأمير المذكور • وصورة القبض عليه : أنهم وجدوه خارجا من بلاد فرنسا فى صورة خادم لامرأة عظيمة ، فعرفوه ، وأوقفوه وخفره الخفر الموجـــود فى الطريق خوفا من

زيادة على ذلك بالموت الحكمي وهو تقريبا نظير مسئلة من انقطع خبره وحكم بموته القاضي باجتهاده ، بعد مضى مدة لا يعيش فوقها غالبا ، والموت الحكمى عند الفرنساوية ، ويقال له « الموت المدنى » هو أن يكون حكم الحى عندهم كحكم الميت فى كثير من الأحوال ، وهو أن المحكوم عليه بذلك يزول عنه جميع ما يملكه ليدخل تحت يد ورثته مثل ما اذا مات حقيقة ، ولا يصح ان يرث غيره بعد ذلك : ولا أن يورث هو غيره الأموال التى ملكها بعد ذلك ، ولا يمكنه أن يتصرف فى أمواله جميعها أو بعضها بهبة أو وصية ، ولا يجوز اهداؤه ، ولا الوصية له الا بالقوت ، ولا يجوز أن يكون وليسا ولا وصسيا ولا شاهدا فى شهادة شرعية ، ولا تقبل دعواه ، ولا ينعقد نكاحه ، بل ينفسخ نكاحه الأول ، بالنظر للأحكام المترتبة عليه : ولزوجته وأولاده أن يصنعوا فى أمواله أو فى أنفسهم كمسا لو مات هو حقيقة • وبالجملة فهو حى ملحق بالموتى ، ولكن لما كان هذا الوزير وأمثاله ممن يحكم عليهم بذلك من أعيان الناس ، وكانت ذريتسه حسنة التربية ، كان المحكوم عليه بذلك يبقى فى العادة على ما كان عليه قبل الحكم ، لكون عائلتسه تعتقد أن هذا من باب التعدى المحض ، وأنه ناج بينه وبين مولاه ، ولا تفارقه زوجته أصسسلا ، لاعتقادها أنها فى عصمته باطنسا ، ولو ولدت منه بعد ذلك ولدا ورثه الأخوة معهم ، وان كان هذا خلاف الأحكام المترتبسة على الموت الحكمى ، ولما سمعت الرعية بذلك قاموا وقالوا لابد من الحسكم عليهسسم بالموت الحقيقى ، فأخبرهم أهسل الدولة أن هذا يناقض ما تطلبونه من الحرية والعدل والانصاف ، وأن كتساب القوانين لم يعين نوع عقوبة الوزراء اذا حصلت منهم خيانة ، وانما حكمت

المشورة بالاجتهاد عقوبة لهم وزجرا لأمثالهم ، ويصـــلح فى حقهم قول الشاعر :

فهم من المجد فى حضيض ... وهم من الجد فى الروابى
وهـم اذا فتشـــوا وعـدوا ... أعز من عـــودة الشـــباب

ثم ليلة أن حكم عليهم بذلك ، قبل أن يطلعوهم على خلاصـــة المشورة أخرجوهم من هذا الحبس الذى كان بنى لأجلهم ، وخفروهم الى قلعة « ونسينه » (١) فحبسوهم بها ، ومنها نقلوهم الى قلعـــة أخرى ، وهم محبوسون بها الى الآن ، والحكم عليهم بهذه الكيفية ، مما يدل على حسن أخلاق الدولة الفرنساوية •

---

(١) Le chateau de Vincennes.

وقال آخـــر :

الدهر يفترس الرجال فلا تكن ممن تطيشه المناصب والرتب
كم نعمة زالت بأدنى زلة ولكل شيء في تقلبه سبب

وكتبوا أيضا في وقائع النوادر ما نصه : ان الباشا المذكور يقول « لشرل » العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ، وان لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا ، على سـبيل الصدقة من الناس ! يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و « شرل العاشر » خرج من بلاده فقيرا ، وصوروا أيضا الملك المذكور في صورة أعمى يتكفف الناس ، ويقول في سؤاله : أعطوا بعض شيء للفقير الأعمى ، يشيرون الى أنه لم يتبصر في عواقب الأمور ، وصوروه أيضا هو ووزيره « بولنياق » خارجين من كنيسـة ، اشارة الى أنهما لايفلحان الا في هذه العبادة الباطلة ، وأنهما قسوس لا أمراء ، وكانوا يزعمون أن الملك كان يلبس في بعض الأحيان لبس القسيسين ، ويقدس بالنـاس كالقسيس في كنيسـته التي في (سرايته) . وكانوا يصيحون في البـلدة بعـد هذه الفتنـة بورقات مطبوعة ، فيها : عشـق هذا الملك وفسـاده في صغر سنه ، وفسق المطران الكبير ، وهكذا ، وبأن ابن ابنـه ليس هو ابنا حقيقيا ، وانما هو ابن مزور ، والعجيب أنهم كانوا يصيحون بهذه الأوراق ليبيعوها في ساحة بيت الملك الجديد ، الذي هو من أقارب الملك . وأعجب من ذلك أنهم يكتبون في هذه الورقة : أن الملك الجديد هو الذي كتب ذلك سابقا في « جرنالات » الانكليز ، بعد ولادة حفيد الملك القديم ، ويصيحون بذلك ، ولا أحد ينكر عليهم ، لما أن حرية الرأي قولا وكتابة تقضي بذلك .

وبعد تولية هذا الملك ظهرت عدة تعصبات عظيمة ، منها من يريد عزله ونصب الجمهورية لعدم اكتفائه بالحرية وطلبه أزيد من

ذلك ، ومنهم من تعصب لنصب الحكم القديم ، وتوليـــة حفيـد الملك السابق ٠

ولا زالت هذه الفتنة باقية الآثار الى الآن ، وربما تعدت آثارها الى غيرها من البلاد ٠

فمن ذلك : الفتنة التى ترتب عليها انعزال اقليم البلجيك من مملكة الفلمنك ، وقد كان جزءا منها ٠

ومن آثارها أيضا : طلب بلاد له الحرية والخروج من حكم الموسقوبية ٠

ومنها : الفتن التى وقعت فى بلاد ايطاليا ٠

الحرب وظهوره بين النيمساوية والفرنساوية ، أو الموسقوبية ، أو الاسبانيول ، أو البروسه ·

والله سبحانه وتعالى أعلم بما كان وبما يكون ، وللفرنساوية الآن التئام مع الانكليز لم يسبق مثله أبدا ، وأما الكلام على الرجوع فراجعه فى خاتمة الرحلة ·

المقالة السادسة

(فى ذكر نبذات من العلوم ولفنون المسرودة فى الباب الثانى من المقـــدمة)

وهى تشتمل على عدة كتب

الكتاب الأول

فى تقسيم العلوم والفنون من حيث هى ، وفى ذكر الفنون والعلوم العامة لجميع التلامذة

الفصل الأول

[فى تقسيم العلوم والفنون على طريق الافرنج]

اعلم أن الافرنج قسموا المعارف البشرية الى قسمين : علوم وفنون

فالعلم هو الادراكات المحققة المذكورة بطريق البراهين ، وأما الفن فهو معرفة صناعة الشيء على حسب قواعد مخصوصة ٠

ثم ان العلوم تنقسم الى رياضية وغيرهـا ، وغير الرياضية تنقسم الى طبيعيات والهيات ٠

والعلوم الرياضية هى : الحساب ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ٠

والعلوم الطبيعية هى : تاريخ الطبيعيات ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ٠

والمراد بتاريخ الطبيعيات علم الحشائش ، والأعشاب ، وعلم المعادن والأحجار وعلم الحيوانات ٠

وهذه الفروع الثلاثة تسمى مراتب التولدات : مرتبة النباتات ، ومرتبة المعادن ، ومرتبة الحيوانات ٠

وأما الالهيات فتسمى أيضا علم ما وراء الطبيعيات : أو ما فوق الطبيعيات ٠

وأما الفنون فانها تنقسم الى فنون عقلية ، والى فنون عملية ، فالفنون العقلية ما يكثر قربهسا من العلوم ، مثل علم الفصساحة والبلاغة ، وعلم النحو ، والمنطق ، والشعر ، والرسم ، والنحاتة ، والموسيقى ، فان هذه فنون عقلية ، لأنها تحتاج الى قواعد علمية ٠ وأما الفنون العملية : فهى الحرف ٠

هذا هو تقسيم حكماء الافرنج ، والا فعندنا أن العلوم والفنون فى الغالب شىء واحد ، وانما يفرق بين كون الفن علمسا مستقلا بنفسه ، وآلة لغيره ، ثم ان العلوم المطلوبة من عموم التلامذة هى : الحساب ، والهندسة ، والجغرافيا ، والتاريخ ، والرسم ، ومعرفة هذه كلها تكون بعد معرفة اللغة الفرنسساوية ، وما يتعلق بها ، فلذلك وجب علينا هنا أن نذكر نبذة منها :

الفصل الثانى

[فى تقسيم اللغات من حيث هى ، وفى ذكر اصطلاح اللغة الفرنساوية]

اعلم أن اللغة لما كانت ضرورية فى افهام السامع معنى يحسن سكوت المتكلم عليه وكانت لازمة فى التفهيم والتفهم وفى المخاطبات والمحاورات ، وجب عند جميع الأمم على المتعلم أن يبتدىء بهـا ، ويجعلهـا وسـيلة لما عداها ، واللغـة من حيث هى الألفـاظ المخصوصـة الدالة على المعـانى المخصوصـة ، وطريقهـا الكلام والكتابة المختلفة باختلاف الأمم ، وهى قسمان : لغات مستعملة ولغات مهجورة ، فالأول ما يتكلم بها الآن كلغة العرب ، والفرس ، والترك ، والهنـد ، والفرنسيس ، والطليانيـة ، والانكليز ، والأسبانيول ، والنمسا ، والموسقو ، والثانى ما انقرض أهله واندثر ولم يبق الا فى الكتب مثل اللغة القبطية ، واللاطينية ، واليونانية العديمة المسماة بالاغريقيـة . ومعرفة هذه اللغات المهجورة فى المخاطبات نافعة لمن أراد الاطـلاع على كتب المتقدمين ، وفى بلاد الافرنج توجـد مدارس مخصوصـة معدة لتعلم هذه الألسن ، لما يعلمون من نفعها .

وكل لغة من اللغات لابد لها من قواعد لتضبطها كتابة وقراءة ، وتسمى هذه القواعد باللغة الطليانية « أغرماتيقا » وباللغة الفرنساوية « أغرمير » ومعناها تركيب الكلام ، يعنى علم ضبط اللغة بنحوها ، فلا مانع من أن يراد بالنحو قواعد اللغة من حيث هى ، وهو مرادنا هنا فهو : علم به يعرف تصحيح الكلام والكتابة على اصطلاح اللغة المرادة الاستعمال ، والكلام ما قصد به افادة السامع معنى يحسن

عليه السكوت ، وهو يتركب من الكلمة ، وأقسامها عند أهل اللغة العربية ثلاثة : الاسم ، والفعل والحرف ، والاسم اما مظهر نحو زيد ، أو مضمر نحو هو ، أو مبهم نحو هذا • والفعل اما ماض كضرب ، أو مضارع كيضرب ، أو أمر كاضرب • والحرف اما مختص بواحد من قسيميه كمن وقد ، أو مشترك بينهما كهل وبل •

وانما قسمنا هذا التقسيم هنا لأنه سيأتى لنا أن الفرنساوية عندهم الضمير واسم الاشارة قسيمان للاسم ، ولا يعدان منه بوجه من الوجوه فانهم جعلوا أجزاء الكلمة عشرة ، كل واحد منها قسم مستقل له علامة وهي الاسم ، والضمير وحرف التعريف والنعت والمشترك وهو أسماء المفعول والفاعل والفعل والظرف ويسمى عندهم مكيف الفعل ، وحروف الجر وحروف الربط وحروف النداء والتعجب ونحوه • فيقولون فى تعريف الاسم هو كلمة تدل على شخص أو شيء أى على العالم وغير العالم مثل زيد وفرس وحجر • وفى تعريف الضمير : هو ما يقوم مقام الاسم وحرف التعريف هو أيضا عندهم لام التعريف كما عندنا الا أنه يختلف باختلاف الاسم الداخل عليه فانه للمذكر « ل » بالضم ، وفى المؤنث « ل » بالفتح ، ولجمعيهما « لس » ، ولكن السين لا ينطق بها ويقولون فى تعريف النعت هو ما يدل على الاتصاف بوصف من الأوصاف كحسن وجميل ، فهو نظير الصفة المشبهة ، وأما اسم الفاعل واسم المفعول فانهما نحو ضارب ومضروب ، والظرف عندهم مثله فى لغة العرب ، وحروف الجر مثل الظروف ، وحروف الجر فى اللغة العربية ، فاذا قال الانسان باللغة الفرنساوية جئت قبل زيد وبعده ، فان قبل وبعد من حروف الجر عندهم ، واذا قال جاء زيد أولا أو قبل أو نحو ذلك فانه ظرف • وأما الحروف الروابط فانهم يعرفونها بأنها ما تتوسط بين كلمتين أو جملتين نحو واو العطف فى قولك جاء زيد وعمرو ، ونحو أن فى قولك أؤمل أن أعيش زمنا طويلا • ومن هذا القسم اذن وحينئذ من نحو

قولك أنت عاقل ، فاذان أنت قابل للتعلم أو أنت فحينئذ قابل ، وحروف النداء والتعجب ونحوها معلومة ، وقواعد لغتهم يلزمها هذا التقسيم ٠

ويظهر أن قول بعضهم أقسام الكلمة أو الكلام ثلاثة في سائر اللغات ، وان الحصر عقلي لعلة استقلالها بالمفهومية وعدمه ، ودلالة ما استقل بالمفهومية على زمان وعدمها فيه بعض شيء ٠

ورأيت في كتب الفرنساوية من قسمها أولا الى هذه الأقسام الثلاثة ، ثم قسمها تقسيما ثانويا ، فالحصر حينئذ عقلي على حاله ٠

ثم ان كل انسان يعبر عن مقصوده اما بالكلام أو بالكتابة ، فكلامه يسمى عبارة ومنطقا ٠ وتعبيره عن مقصوده بالكتابة يسمى نفسا ومسطرة وقلما ، فقد يكون قلم الانسان أفصح من عبارته ، فانه قد يكون الانسان ألكن ، ويكون قلمه فصيحا ثم انه اذا أفصح واغرب غرابة مقبولة كانت عبارته عالية ، وان كانت عبارته مؤدية للمقصود من غير ركاكة فهي مناسبة ، وان كان بها بعض شيء يمجه السماع فهي ركيكة أو رديئة ، وعلى كل فالعبارة اما بها اطناب أو اختصار أو على الأصل ، ثم ان الكاتب اما أن يفصح عن مراده بنظم أو نثر ، وعلى كل فاما أن يكون كلامه أو تأليفه باللغة المستعملة في المحاورات المسماة الدارجة أو باللغة الموافقة ، فقواعد النثر هو الأصل في الكلام والتأليف ، ولا يحتاج الى وزن وتقفية الا في السجع ، وهو لسان العلوم والتاريخ والمعاملات والمراسلات والخطابات ونحو ذلك ، ولاتساع اللغة العربية كان بها كثير من كتب العلوم منظوما ، وأما لغة الفرنسيس فلا ينظم فيهما كتب العلوم أصلا ٠

والنظم هو أن يفصح الانسان عن مقصوده بكلام موزون مقفى ، وهو يحتاج زيادة عن الوزن الى رقة العبارات ، وقوة الأسباب الداعية لنظمه ، ويعجبني قول بعضهم موريا :

صوغ القريض على اختلاف رجاله — ما بين حصبا لاتعد وجوهر
واذا أردت بأن تفوز بدره — نظما فخذه من «صحاح الجوهرى»

ولبعضهم :

يا من يقول الشعر غير مهذب — ويسومنى التكليف فى تهذيبه
لو كان كل الخلق فيك مساعدى — لعجبت من تهذيب ماتهزو به (١)

وقال بعضهم فى فقد الأسباب :

قالوا تركت الشعر قلت ضرورة — باب الدواعى والبواعث مغلق
خلت الديار : فلا كريم يرتجى — منه النوال ، ولا مليح يعشق

وقال آخر :

الشعر لا يخفى عليكم حاله — قد بار وا أسفاه ، بعد نفاق (٢)
وارحمتا لبنى القريض ، فانهم — ماتوا ، وهم أحياء ، من الاملاق (٣)

ونظم الشعر غير خاص بلغة العرب ، فان كل لغة يمكن النظم فيها بمقتضى علم شعرها ، نعم ، فن العروض على الكيفية الخاصة به المدون عليها فى لغة العرب وحصره فى البحور الستة عشر المستعملة هو لخصوص اللغة العربية ، وليس فى اللغة الفرنساوية تقفية النثر . ومعرفة فن النظم لا تكفى فى نظم الشعر ، بل لابد أن يكون الشاعر به سجية النظم سليقة وطبيعة ، والا كان نفسه باردا وشعره غير مقبول :

الى العربى مل فى نظم شعر — فذاك لسان أرباب الكمال
فشعر الفرس أسكرنا بجام — وشعر الترك طرز بالخيال

---

(١) الصواب : : ما تهذى به ، ليكون الجناس تاما .
(٢) نفاق : مصدر نفق البيع : راج ، ورغب الناس فيه .
(٣) الاملاق : الافتقار .

ولنذكر هنا خلاصــــة صغيرة من الأشــعار ملخصة من أحسن القصائد والمقطعات فنقول : قد اشتهر أن أرق بيت قالته العرب في الغزل قول جرير :

ان العيون التي في طرفها حور قتلتنــا ، ثم لم تحيين قتــلانا
يسلبن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انســانا

ولنذكر هنا حكاية لطيفة ، وهي : أنــه دخل أعرابي على ثعلب ، فقــال له : تزعم أنك أعلم الناس بالأدب ؟ فقــال : كذا يزعمون ، فقال : أنشدني أرق بيت قالته العرب ، وأسلسه فقال قول جرير : ان العيون الى آخره ، فقال : هذا الشعر غث رث ، قد لاكه السفلة بألسنتها ، هات غيره ، فقــال ثعلب : أفدنا من عندك يا أعرابي ، فقال : قول مسلم بن الوليد صريع الغواني :

نبــــارز أبطال الوغى فنبيدهم ويقتلنا في السلم لحظ الكواعب
وليست سهام الحرب تفني نفوسنا ولكن سهام فوقت في الحواجب

فقال ثعلب لأصحابه : اكتبوها على الحناجر ، ولو بالخناجر ! فشعر مسلم ابن الوليد أقوى حماسا من قول جرير ، وأقول : ان نسبة القوة بينهما كنسبتها بين قول بعضهم :

خطرات النسيم تجــرح خديــ ـه ولمس الحرير يدمي بنانه

وقول ابن سهل الاسرائيلي :

اني له عن دمي المسفوك معتذر أقول : حملته في سفكــه تعبا

ومما يمكن نظمه في سلك قول مسلم بن الوليد قول بعضهم :

نعد العذارى من دواهي زماننا واقتلهـــا أحداقهـــا والمحاجر
ونشكو اليها دائرات صروفــه وأعظمها أطواقهـا والأســـاور

ويعجبنى قول أمين أفندى الزلل فى همزيته :

واقرن صبوحك بالغبوق، ولاتدع فرص السرور بغدوة ومساء
واعقد ببنت الحان ، واجعل مهرها عقلى ، وأشهد سائر الندماء
واستجلها بكرا تقلد جيدها بعقود در بل نجوم سماء

الى أن قال :

من كف ساق فى لماه ولحظه وحديثه نوع من الصهباء
وبخده ورد حماه بأسهم عن قطفه باللحظ والايماء

ويحسن هنا ذكر قول الشهاب الحجازى :

لا وغصن راق للطرف ورق وعليه حلل الظرف ورق
وشموس لم تغب عن ناظرى والشعور الليل والخد الشفق
وعيون حرمت نومى وما حللت لى غير دمعى والأرق
ما احمرار الراح الا خجلا من رضاب سكرت منه الحدق
والذى قد حسبوه حببا فوق خد الكاس قطرات العرق

ويعجبنى قول بعضهم :

لولا شفاعة شعرها فى صبها ما واصلت وأزالت الأسقاما
لكن تنازل فى الشفاعة عندها وغدا على أقدامها يترامى

وينتظم فى سلكه قول بعضهم :

سل سيفا من لحظه ثم أرخى وفرة وفرت عليه الحميلة (١)
ان شكا الخصر طولها غير بدع لنحيل يشكو الليالى الطويلة

---

(١) الحميلة : علاقة السيف .

وهما يفوق قول الواو (١) الدمشقي أو يساويه :

قالت متى الظعن يا هذا؟ فقلت لها : اما غدا زعموا أولا فبعد غد
فأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت وردا ، وعضت على العناب بالبرد

وقول بعضهم :

بنفسي بيضـــاء العـــوارض أقبلت
بوجـه كأن الشرق من حسنه غرب
وبين الازار الملوى حقف رملة (٢)
وبين الوشـــاح المتلوى غصن رطب
وتحت لثام الخز أنفاســها لظى (٣)
وفوق الرواد السكب لامعهـــا سكب
تبدت مع الأتراب تدعو على النوى (٤)
وان لم يكن في الغانيـات لهـا ترب
تسيل على الخد الأسيل (٥) دموعها
وصب دمـوع العين يروى به الصب
وقد وكلت احـــدى يديهـا بقلبهـــا
مخافة أن يرفض من صدرها القلب (٦)
فلمـــا أجـــزن الجسر فمــن وراءه
كسرب من الغزلان ليس له سراب (٧)

---

(١) الصواب : الوأواء .
(٢) الازار : كل ما سترك ، والحقف : كل ما اعوج من الرمل واستطال .
(٣) الخز : الحرير ، واللظا : النار أو لهبها
(٤) الأتراب : جمع ترب وهو من ولد معه ، والنوى : البعد
(٥) الأسيل : اللين الأملس الطويل .
(٦) ارفض : تفرق ، وذهب
(٧) السرب من الغزلان : القطيع منها . وسرب (في آخر البيت) بمعنى البال والقلب والنفس .

وعضت ببدر الثغر فضة معصم
يكاد يثنيه من الذهب القلب (١)

وكادت تحط الرحل لولا عزيمتي
قسي جفون العين أسهمها الهدب

ومما يعد من الأشعار الرقيقة قول الشاعر :

يصفر وجهي اذا تأمله طرفي فيحمر خده خجلا
حتى كأن الذي بوجنته من دم جسمي اليه قد نقلا

ومما ينسب للخليفة هارون الرشيد :

واذا نظرت الى محاسنها فلكل (٢) موضع نظرة نبل (٣)
وتنال منك بحد مقلتها ما لا ينال بحده النصل
شغلتك وهي لكل ذي بصر لاقي محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها عن ذي الهوى ، ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل (٤)

ومن أرق ما قيل أيضا قول الشاعر :

لاموا على صب الدموع كأنهم لا يعرفون صبابتي وولوعي
فأجبتهم : وعد الخيال بزورة أفلا أرش طريقه بدموعي !

ومما يعجب في الرثاء قول أبي الطيب في أبي شجاع فاتك :

يا من يبدل كل يوم حلة أنى رضيت بحلة لا تنزع
مازلت تخلعها على من شاءها حتى لبست اليوم ما لا يخلع
مازلت تدفع كل أمر فادح حتى أتى الأمر الذي لا يدفع

---

(١) يثنيه : يكون ثانيا له . القلب (بالضم) : سوار المرأة .
(٢) الأصل : « فكل » وبه ينكسر الوزن ولعل الصواب ما ذكرناه : فلكل .
(٣) النبل : عظام الحجارة او صغارها .
(٤) الكحل : سواد منابت شعر الأجفان خلقة .

فظللت تنظر لارماحك شرع(١) بين الأقلام ولا سيوفك قطع
بأبي الوحيد وجيشه متكاثر يبكي ومن شر السلاح الأدمع
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رحت به وخدك تقرع

الى أن قال :

من للمعاقل والجحافل والسرى(٢) فقدت بفقدك نيرا لا يطلع
ومن اتخذت على الضيوف خليفة ضاعوا ومثلك لا يكاد يضيع

وقوله أيضا في فاتك المذكور :

لا فاتك آخر في مصر نقصده ولا له خلف في الناس كلهم
من لا تشابهه الأحياء في شيم أضحى تشابهه الأموات في الرمم
عدمته وكأني سرت أطلبه فما تزيدني الدنيا على العدم

الى أن قال :

الدهر يعجب من حملي نوائبه وحمل جسمي على أحداثه الحطم(٣)
وقت يضيع وعمر ليت مدته في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

بالجملة والتفصيل فأحسن وأظرف ما قيل :

سلوت على الأحبة والمدام وملت عن التهتك والهيام
وسلمت الأمور الى الهي وودعت الغواية بالسلام
وملت الى اكتساب ثواب ربي وقدما طال عزمي بالغرام
وما أنا بعده معط عنان الـ ـهوى لكن ترى بيدي زمامي

---

(١) شرع : مسددة ، مصوبة .
(٢) الجحافل : جمع جحفل ، وهو : الجيش العظيم .
(٣) الحطم : الشديدة .

أبعد الشيب وهو أخو سكون — يليق بأن أميل الى غرام
فشرب الراح نقص بعد هذا — ولو من راحتى بدر التمام
فكم أجريت فى ميدان لهو — خيول هوى وكم ضربت خيامى
وكم قبلت وردا من خدود — وكم عانقت غصنا من قوام
سأوتى الكأس تعبيسا وصدا — وان جاءت تقابل بابتسام
عزمت على الرجوع عن الملاهى — ومثلى من يدوم على اعتزام

الفصل الثالث

« فى فن الكتـــابة »

هو فن يعرف به التعبير عن المقصود بنقوش مخصوصة تسمى حروف الهجاء أو حروف المعجم ، وأغلب الحروف الهجائية متفقة فى سائر اللغات ومبدوءة بحرف الألف الا عند الحبشة ، فان حرف الالف هو الثالث عشر ، وصناعة الكتابة شديدة النفع عند سائر الأمم ، وهى روح المعاملات واحضـــار الماضى ، وترتيب المستقبـل ورســـول المراد ، ونصف المشـــاهدة • ثم ان العرب والعبرانيين والسريانين يكتبون من اليمين الى الشـــمال ، والصينيون يكتبون من أعلى الى أســـفل ، وتكتب الافرنـــج من الشـــمال الى اليمين ، وهل الأوفق طبعا الكتابة من اليمين الى الشمال كما تكتب العرب وغيرهم ممن ذكر معهم ، أو العكس كما تكتب الافرنج ؟ •

مما يدل على الأول ترتيب الأعداد فانها مرتبة طبعا ، وهى تبتدىء من اليمين الى اليسار ، فالآحاد التى هى أجزاء العشرات تكون على يمين العشرات ، والعشرات كذلك بالنسبة للمئات ، وهى كذلك بالنسبة للالوف ، واذا كانت الأعداد أصولا لغيرها — يعنى أشياء أولية اتفقت فيها الطبائع على اختلاف أصحابها — دل ذلك على أن مخالفتها مخالفة للأصل وثبت نقيضه وهو المراد • وحاول الافرنج فحملوا القراءة والكتابة على قراءة الأعداد وكتابتها فقط ، فبرهنوا بهذا على أوفقية طريقتهم للطبع • فمن باب أولى يقـــال : ان الكتابة من أعلى الى أسفل مخالفة لمقتضى الطبع ويقال : ان العرب كانت تعرف الكتابة فى زمن سيدنا أيوب عليه السلام ، وقد رقع

اختلاف فى أن الحروف الهجائية هل هى من الأوضاع الالهية أو من الأوضاع البشرية ، وعلى الثانى فقد وقع الاختلاف فى أنها من أوضاع أى ملة ، فقال بعضهم : انها من أوضاع السريانيين أو من أوضاع قدماء المصريين ، واستظهر الأول فعليه تكون انتقلت من السريانيين الى اليونان ، بدليل أن الحروف اليونانية هى عين السريانية الا أنها انقلبت من الشمال الى اليمين ، ومن أهل اليونان أخذ الروماتيون حروفهم •

وجودة الخط لا تدل على الفضل ، وعدم تأدية الكتابة حقها دليل على الجهل •

وقد تنازع الشعراء فى التفضيل بين السيف والقلم ، ثم بين قلم الانشاء والحساب • وأشار المتنبى (١) الى تفضيل السيف فى قوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

وأشار السيوطى فى كتاب الأوائل الى تفضيل القلم على السيف حيث قال :

الكتب عقل شوارد الكلم ... والخط خيط فرائد الحكم (٢)

بالخط نظم كل منتثر ... منهما ، وفصل كل منتظم

والسيف ، وهو بحيث تعرفه ... فرض عليه عبادة القلم

---

(١) البيتان الآتيان لأبى تمام فى مطلع قصيدته التى هنأ بها المعتصم بعد عودته منتصرا من غزوة فى بلاد الروم •

(٢) عقل الدابة : ربطها • وشوارد الكلم : نوادرها وغرائبها • فرائد الكلم : نفائسها •

وتمـــام رفع المنازعة فى تاريخ الدول لابن الكردبوسى فى قوله : قوام الملك (١) شيئان السيف ، والقلم • والثانى مقدم على الأول • وبرهن على ذلك • والظاهر أن يقال في ذلك ما قيل في الكتابتين : من أن صناعة الانشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، فيقال ان السيف أرفع من القلم ، والقلم أنفع منه •

---

(١) قوام الملك : عماده ، وما يقوم به •

الفصل الرابع

(فى علم البلاغة المشتمل على البيان والمعانى والبديع)

وهو علم تحسين العبارة ، أو علم تطبيق العبارة على مقتضيات الأحوال ، والمقصود منه على العموم توصل الانسان الى الافصاح عما في ضميره بفصيح الكلام وبليغه ·

وهذا العلم بهذا الحيثية ليس من خواص اللغة العربية ، بل قد يكون فى أى لغة كانت من اللغات ، فانه يعبر عن هذا العلم فى اللغات الافرنجية بعلم « الريثوريقى » نعم هذا العلم فى اللغة العربية أتم وأكمل منه في غيرها ، خصوصا علم البديع فانه يشبه أن يكون من خواص اللغة العربية ، لضعفه فى اللغات الافرنجية ·

وبلاغة أسلوب القرآن الذى نزل اعجازا للبشر من خصوصيات اللغة العربية ، ثم انه قد يكون الشىء بليغا فى لغة غير بليغ فى أخرى ، أو قبيحا فيها ، وقد تتفق بلاغة الشىء فى لغتين أو لغات كما اذا أردت أن تعبر عن رجل شجاع بأنه أسد ، فتقول زيد أسد ؛ فان هذا مقبول في غير اللغة العربية كما هو مقبول فيها واذا أردت أن تعبر عن شخص حسن بأنه بديع الجمال ، فتقول : هو شمس أو عن حمرة خده فتقول : خدوده تتلظى ، فان هذا التشبيه حسن فى اللغة العربية ، غير مقبول أصلا فى اللغة

الافرنجية . وكذلك ما يقال في الريف ونحوه ، مثل قول الشاعر :

خليلي ان قالت بثينة : ماله
أتانا بلا وعد ؟ فقولا لها : لها

سها ، وهو مشغول بعظم الذى به
ومن بات طول الليل يرعى السها سها(١)

بثينة تزرى بالغزالة في الضحى
اذا برزت لم يبق يوما بها بها (٢)

لها مقلة نجلاء كحلاء خلقة
كأن أباها الظبي أو أمها مها (٣)

دهتني بود قاتلي ، وهو متلفي
وكم قتلت بالود من ودها دها (٤)

وماست بأعطاف لطاف تهزها
فعاينت غصن البان من هزها زها (٥)

وقالت : وقد سارعت في السير دونها
وقاطعت طرقا دونها ومها مها

سلافة ريق (٦) عتقت ، ثم روقت
فمن لم يمت بالسكر من صفوها وهي

---

(١) السها : كوكب خفى في مجموعة « بنات نعش » .
(٢) الغزالة : الشمس .
(٣) النجلاء : الواسعة . والمها جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية .
(٤) دها : دهاء .
(٥) زهاء : ازدها .
(٦) الظاهر ان الصواب : ريقي ، ليكون مقول القول . وعتق : قدم . ووهى الرجل : حمق .

وفي الشفة اللعسا دوا كل مدنف
فان كنت مشتاقا الى رشفها فها (١)

فأغلب التشبيهات الموجودة في هذه الأبيات غير مقبولة عندهم ، لأنهم يقولون ان الطبع لا يألف الريق مثلا لكونه آيلا الى البصاق . واذا شبهت بضع العذراء قبل افتضاضها بالوردة التي لم تفتح ، ثم بعده بالوردة المفتوحة كان ذلك عظيما عند الفرنسيس . فمبنى البلاغة عندهم على ما يقبله الطبع . ويقال : نسبة علم البلاغة للبلاغة كنسبة العروض للشعر ، فحينئذ قد توجد البلاغة عند من لا يحسن علمها ، كما أنه قد يحسنه غير البليغ .

وأغلب نفع البلاغة يكون في الشعر والخطابات ونحوها من كتب الآداب والتواريخ وأعظم نفع ذلك العلم الموصل الى معرفة أسرار التنزيل واعجازه ، وذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم بعث في زمن شعر ونظم وكهانة ، فأيده الله سبحانه وتعالى بالقرآن الذي لو « اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » فظهر لأرباب العقول الصائبة أنه كلام قادر يقدر ولا يقدر عليه ، وأنه لا يشبه كلام المخلوقين ، فآمنوا به ، واتبعوه ، الا من حق عليه العذاب . فنزل القرآن الشريف على مقتضيات الأحوال ، وكانت سائر عباراته مناسبة للأحوال لفظا ومعنى ، واذا أردت توضيح العلوم الثلاثة ومعرفة قواعدها فعليك بكتب المعاني والبيان والبديع .

---

(١) المدنف ، المريض .

الفصل الخامس

[فى المنطق]

هو علم يبحث فيه عن المعلومات التصورية والتصديقية من حيث توصيلها الى غيرها ، والمشهور أن واضعه « أرسطو الحكيم » المسمى أيضـــا : « أرسطاطاليس » وفى كتب الفرنساوية أن أرسطاطاليس هو الذى قد كمل هذا الفن ، وأن « أفلاطون » أيضا هذبه ، وأن « زنون » وضعه • ونسبة هذا العلم للجنان كنسبة النحو للسان ، والعروض للنظم ونحو ذلك •

ولهذا العلم مباد ومقاصد ، فمباديه التصورات والتصديقات ومقاصده التعريفات والأقيسة ، والتصـــور ادراك غير الحـــكم ، وعكسه للتصديق فاذا تصورنا حقيقة الرجـــل من غير أن نحـــكم عليه باثبـــات ونفى كان ذلك تصـــورا ، واذا حكم عليه بأن عالم مثلا فانه يكون تصديقا ، والتصور قسمان : بسيط ، مركب ، فالتصور البسيط : ادراك الشىء مجردا عن صفاته ، والمركب : ادراك الشىء مع بعض صفاته ، مثال الأول : ما اذا تصورت الانسان ولم يخطر ببالك أنه متحرك ، ومثال الثانى : ما اذا تصورته وميزته من الجماد بتحركه فالتصور لا يكون الا فى المفردات ، كما أن التصديق لا يكون الا فى القضايا ، والقضية ، هى حكم يحصـــل باثبات تصور الى آخر ، أو نفيه عنه ، فالتصور المسند اليه الاثبات أو النفى يسمى : الموضوع ، والتصور المسند الى الموضـــوع مما تقدم يسمى : المحمول ، والموضوع والمحمول يسميان جزءى القضية ،

وهذان الجزآن يجمعهما جزء ثالث يسمى رابطة · مثال ذلك ما اذا قلت : زيد فصيح فان زيدا هو الموضوع وفصيح هو المحمول ، والرابطة مقدرة والتقدير زيد هو الفصيح ، أو زيد يكون فصيحا ، وأما اذا قلت : زيد هو الفصيح فان الرابطة ظاهرة ، ثم ان القضية اما كلية يعنى مستغرقة لسائر الأفراد ، كما اذا قلت : كل انسان صنعة الله تعالى ، واما جزئية كما فى قولك : بعض الحيوان انسان · وكل من القضية الكلية والجزئية مسور ·

واما شخصية واما مهملة فالأولى كزيد قائم والثانية كالانسان كاتب بقطع النظر عن الكلية والجزئية · واما طبعية : كما فى قولك : الظلم ردىء · والقضية أيضا اما بسيطة أو مركبة ، فالقضية البسيطة ما كانت غير متعددة الموضوع والمحمول ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، والرذيلة ذميمة ، وبخلافها المركبة ، فهى ما تعدد فيها الموضوع فقط ، أو المحمول فقط ، أو هما معا ، كما اذا قلت : الفضيلة والرذيلة ضدان ، أو الفضيلة محبوبة مطلوبة ، أو الفضيلة والرذيلة ضدان لا يجتمعان ، ونحو ذلك ، واذا كانت القضية المركبة مصنوعة من عدة قضايا بسيطة فانه يكفى فى كذبها كذب بعض أجزائها · وأما التعريفات التى هى مقاصد التصورات ومصححات القضايا فانها تنقسم الى تعريف بالحد ، وتعريف بالرسم ، وتعريف لفظى ، فمثال التعريف بالحد قولك الانسان حيوان ناطق ، ومثال التعريف بالرسم قولك : الانسان حيوان كاتب ، ومثال التعريف اللفظى قولك الانسان هو الآدمى اذا فرضنا أن لفظ الآدمى أشهر وأعرف من لفظ الانسان · ويمكن أن يجعل من هذا القسم الثالث سائر تفسير الألفاظ المترجمة من لسان الى آخر ، مثال ذلك : اذا قدرنا أن أعجميا لا يعرف معنى كلمة الله ، فانك تعرفها له تعريفا لفظيا بقولك له : الله هو « خداى » ·

وكل من الحد والرسم ينقسم الى تام ، والى ناقص ، على حسب كونه بالجنس ، أو الفصل القريب أو البعيد ، أو بالخاصة ، أو بالعرض العام ، كل منها منفردا أو مجتمعا ، وهذا كله موضح في كتب المنطق .

وأما القياس : وهو المقصود الأصلي من علم المنطق فهو ما يلزمه لذاته تصديق آخر ، مثال ذلك : ما اذا قلنا ان الله سبحانه وتعالى لابد أن يقتص من الظالم للمظلوم ، فانك تقول هكذا : الله سبحانه وتعالى حكم عدل ، وكل من كان كذلك فانه يقتص للمظلوم من الظالم ، فتكون النتيجة هكذا الله سبحانه وتعالى يقتص للمظلوم من الظالم . فمتى سلمنا القضيتين الأوليين فلابد أن نسلم القضية الثالثة ، والقضيتان الأوليان تسميان مقدمتين ، واحداهما تسمى صغرى ، والأخرى كبرى ، وروح القياس هو النتيجة .

والقياس يكون صحيحا اذا كان صحيح المادة والصورة ، وفاسدا اذا فسدت احداهما ، والمراد بصحة المادة أن سائر قضاياه تكون صحيحة ، والمراد بصحة الصورة أن يكون منظوما على كيفية يكون انتاجها ضروريا ، والقياس الصحيح : هو المسمى بالحجة والبرهان ، وأما القياس الفاسد أو البرهان الفاسد فيسمى سفسطة ، وهو ما يشبه الصحيح وليس صحيحا ، لعدم ملازمة نتيجته الظاهرية للمقدمات الصحيحة .

وفي كتب الفرنسيس أن القاعدة التي ينبني عليها القياس الصحيح ويمتاز من السفسطة هي اثبات أصلين أحدهما مبنى الصحة ، والآخر مبنى الفساد ، وهما أن المستلزم لشيء مستلزم لذلك الشيء ، والنافي لشيء ناف لشيء آخر هو ناف لذلك الآخر ، أو ناف للاثنين معا ، وكيفية تطبيق هذا على القياس انك اذا سئلت عن الغضب هل هو مذموم ، فأردت أن تستدل على أنه مذموم ، فانك تبحث عن طرف القضية الذي هو الموضوع . فانك ترى من

جمله تعريف الغضب أنه عيب ، فحينئذ كلمة غضب متضمنة لمعنى العيب فتركب مقدمة هكذا : الغضب عيب ، ثم تقابل العيب مع الذم الذى هو محمـــول القضية ، فانك تجد أن العيب يســـتلزم الذم ، فتقول : العيب ذميم ، فاذا لما رأيت أن الغضب يســـتلزم العيب والعيب يســـتلزم الذم ، فانك تنتج منـــه أن الغضب ذميم ، فكل قياس لا يمكن أن تطبقه على هذا الأصـل فانه يكون سفسطة ، مثال ذلك أرسطو فيلسوف ، وبعض الفلاسفة صالح ، فأرسطو صالح ، فان الانتاج فاسد . وذلك أن القضايا لا تستلزم النتيجة ، لأنه لا يلزم من كون أرسطو هو أحد الفلاسفة ، وأن بعض الفلاسفة صالح أن أرسطو صالح .

وبعض أجزاء القياس قد يحذف للعلم به ، كما فى قولك : الفضيلة حميدة ، فينبغى كسبها .

والقيـــاس اما حملى أو شرطى ، فكل ما تقدم مثال للحملى ، ومثال الشرطى : لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجودا ، لكن الشمس ليست بطالعة – تخرج النتيجة قائلة – فالنهار ليس بموجود . ومحل ذلك كتب المنطق .

ثم ان الافرنج كمـا يطلقون الكلمـات على قـواعد اللغـــة الفرنساوية ، ويسمون ذلك اعرابا نحويا ، يطبقونهـا على قواعد المنطق ويسمون ذلك [اعرابا] منطقيا ، فاذا أراد انسان اعراب « زيد فاضل » اعرابا نحويا فانه يقول مثلا زيد مبتدأ وفاضل خبره أو نحو ذلك مما يليق بقواعد نحوهم ، واذا أراد أن يعرب اعرابا منطقيا فانه يقول : زيد موضوع ، وفاضل محمول ، وهذه القضية قضية شخصية ، ويفعلون ذلك فى سائر الجمل .

الفصل السادس

[في المقولات العشر المنسوبة الى أرسطو]

من المعلوم أن أرسطاطاليس حصر الأشياء المتعقلة في عشر مراتب تسمى مقولات ، فجعل المواد داخلة تحت الأولى ، وجعل سائر الأعراض داخلة تحت التسعة (١) الأخرى ٠

المقولة الأولى : مقولة الجوهر ، وهو جسماني وروحاني ٠

الثانية : الكم وهو اما منفصل اذا كانت الأجزاء متفرقة مثل العدد ، أو متصل اذا كانت الأجزاء مجتمعة ٠ وهو اما متتابع مثل حركة الفلك ، أوقار وهو المسمى العظم أو الامتداد للجسم ، من الطول والعرض والعمق ٠ فمن الطول وحده تتعقل الخطوط ومن الطول والعرض تتعقل السطوح ، ومنها مع العمق يحصل الجسم التعليمي ٠

الثالثة : الكيف ، وقسمه أرسطو الى أربعة أقسام ، فالأول : هو الاستعدادات يعني تهيئات العقل أو الجسم المكسوبة بالأعمال المتكررة مثل العلوم والفضائل ، والرذائل ، والقدرة على الكتابة والرسم والرقص ، والثاني القوى الطبيعية : مثل قوة النفس والبدن ، كالادراك ، والارادة ، وقوة الحفظ والحواس الخمسة ، والقدرة على المشي ، والثالث القوى المشاهدة : مثل الصلابة ، والرخاوة ، والكثافة ، والبرد ، والحر ، والالوان

---

(١) الصواب : التسع ٠

والأصوات ، والروائح ، والأذواق ، والرابع الصور ، والأشكال التي ينتهى بها الكم مثل : الاستدارة والتربيع والكروية والتكعيبية .

الرابعة : مقولة الاضافة وهي النسبة بين شيئين مثل الأب ، والابن ، والمخدوم ، والخادم ، والملك ، والرعية ، وكنسبة القدرة والارادة لمتعلقيهما ، والبصر للمبصر بالقوة وكالنسبة التي تقتضى المشاركة ، كالشبيه ، والمساوى ، والمباين ، والأصغر ، والأكبر .

الخامسة : مقولة الفعل ، سواء كان قائما بالفاعل مثل : المشى ، والقيام ، والرقص ، والمعرفة والعشق . أو واقعا منه على غيره مثل الضرب ، والقتل الى آخره .

السادسة : مقولة الانفعال ، مثل الانكسار ، والانحراف .

السابعة : مقولة الأين ، يعنى جواب السؤال الذى يتعلق بالمكان مثل قولك : فى مصر ، فى الحريم ، فى الفراش .

الثامنة : مقولة المتى ، وهو جواب السؤال الذى يتعلق بالزمان ، كما اذا قلت : متى كان موجودا فلان ؟ فقيل من منذ مائة سنة ، أو متى وقع هذا ؟ فقيل : البارحة .

التاسعة : مقولة الوضع ، كحالة الجلوس ، والوقوف ، وكونه قبل ، أو بعد ، أو أمام أو على اليمين ، أو على اليسار .

العاشرة : مقولة الملك ، وهو وجود شىء مع الانسان منسوبه اليه ، كاللباس ، والزينة ، والسلاح ، فتعلق ذلك به وحوزه له هو هذه المقولة فهذه المقولات العشر التي ذكرها أرسطو ، وعدت من الأمور الخفيـة ، والافرنج يقولون انه ليس فى معرفة هـذه المقولات كبير فائدة ، بل معرفتها مضرة لشيئين : الأول أن الانسان يظن أنها مبنية على حكم عقلى ومحصورة بحصر استدلالى ، مع أنها ليست الا اصطلاحية جعلية ، حصرها بعض الناس فى هذه الأقسام

ليظهر بها الرياسة على غيره ، مع أنه يوجد فى ذلك الغير من يمكنه أن يحصرها حصرا آخر جديدا ، كما فعل ذلك بعض الناس من أنه حصر المقالات فى سبعة ، وسماها المواد العقلية :

المادة الأولى : العقل أو الجوهر الدراك ٠

الثانية : الجسم ، أو الجوهر ذو الامتداد ٠

الثالثة : القدر أو صغر كل جزء من أجزاء الهيولات ٠

الرابعة : وضع الهيولات على التناسب بين أجزائها ٠

الخامسة : صورة الأشياء ٠

السادسة : الحركة ٠

السابعة : السكون ٠

الشيء الثانى أن متعلمها يكتفي بمجرد ألفاظ وهمية ويظن أنه على شيء ، مع أنه لم يعرف بها شيئا له فى الواقع معنى واضح محقق ٠

الفصل السابع

(فى علم الحساب المسمى باللغة الافرنجية الارتيماطيقى) (١)

اعلم أن « الأرتيماطيقى » هو أحد العلوم الرياضية الخالصة . وذلك لأن حكماء الافرنج قسموا الرياضيات الى خالصة وغير خالصة أو مختلطة ، فالرياضيات الخالصة هى علم الحساب الغبارى ، والهوائى (٢) وعلم الجبر ، والمقابلة (٣) وعلم الهندسة ، ونحو ذلك، وأما الرياضيات المختلطة فهى : علوم الحيل ، وفن تحريك الأثقال ونحوها · والرياضيات الخالصة هى ما تبحث عن الكميات ، والأشياء القابلة للزيادة ، والنقصان · والرياضيات المختلطة هى ما يدخلها أشياء خارجية من علم الطبيعة وغيره ·

والحساب أهم العلوم الرياضية وقد دلت كتب التواريخ على أن واضع هذا العلم أهل بزور الشام ، يعنى الصوريين ، وقدماء أهل مصر ــ يعنى أن هاتين الأمتين هما أول من جمع الأعداد والحساب ، ونظماهما فى عقد الترتيب ، حتى ان فيثاغورس الحكيم رحل من بلاد اليونان الى مصر ، فتلقى فيها هذا العلم · ومما اشتهر بين السلف أن علم الحساب من مخترعات الصورتين ويقال : انهم أيضا أول من استعمل القوائم والدفاتر ، والظاهر أن الأصابع هى أول الطرق التى

---

(١) L'Arithmétique.

(٢) يريد بالحساب الغبارى : ما يقوم به الحاسب على التراب والرمل ، وبالهوائى ما يقوم به الهواء ·

(٣) يريد بالمقابلة المعادلات الجبرية ·

استعملها الانسان في الحساب ، وأن ذلك هو السبب في كون أول عقد في العدد هو عقد العشرات ، والثاني عقد عشرات العشرات التي هي المئات ، والعقد الثالث عقد عشرات المئات أو الألوف وهكذا ، لأن الأصابع عشرة ، فكان الانتقال من عقد الى آخر من عشرة الى عشرة ، ولما كانت الأصابع لاتكفي الا في تمييز عشرة عشرة احتاج الأمر الى طريقة أخرى،وعلامات أخرى فأخذوا صغار الحصى ، وحبوب الرمل والقمح ونحوها ، واستعملوها لضبط المعدودات ، كما هو الآن عند بعض همل أمريكة ، وبعض همل غيرها من أقسام الأرض ، حتى ن بعض قدماء الأمم الماضين لايوجد في لغاتهم ما يمكن التعبير به عما فوق العشرات ، فانهم كانوا يعبرون عن مائة وسبعة وعشرين مثلا ، بقولهم : سبعة وعشرتان وعشرة عشرات ، وذلك لأن لأقدمين كانوا يذكرون العدد الأصغر قبل الأكبر ، فيبتدئون بالآحاد ثم بالعشرات ثم بالمئات ، وهكذا • كما قال بعضهم : انه يوجد في كتب العبرانيين واليانيين ما يدل على ذلك ، وهو أيضا أسلوب اللغة العربية فيما دون المائة ، وأما الآن فقد تبحر الأمم في علم الحساب وتنوعوا تفننوا فيه ، حتى وصلوا الى كماله وحد علم الحساب علم يبحث فيه عن الأعداد من حيث ما يعتريها من الأعمال •

والعدد : اجتماع الآحاد ، وهو قسمان : صحيح وكسر ، وزاد بعضهم ثالثا،وهو ما تركب منهما ، وسماه عددا مشتملا على الكسور، يتعلق بهذه الأعداد أعمال أربعة هي : الجمع ، والطرح ، والضرب ، القسمة ، وهي معلومة في كتب هذا الفن •

وأما علم الهندسة ، فموضوعه قياس الامتدادات الثلاثة التي هي الطول والعرض والعمق ، كما أشرنا اليه في منظومتنا في علم الهندسة بقولنا :

موضوعه قياس الامتداد	فسره بالثلاثة الأبعاد
لطول والعرض كذا والعمق	وشرح هذي غير مستحق

وأما الجغرافيا ، فقد تقدم منها نبذة فى مقدمة الكتاب ، وانما ينبغى لنا هنا أن نذكر أقسامها ، فنقول : انه تارة ينظر الى الأرض من جهة شكلها وسكونها أو تحركها ، أو نسبتها لما عداها من الأجرام الفلكية ، فتسمى الجغرافيا الرياضية أو علم هيئة الدنيا ، وتارة تلاحظ من جهة مادتها الترابية أو المائية ، وما يتعلق بذلك مما يظهر على سطحها مثل الجبال ، فتسمى بالجغرافية الطبيعية أى المتعلقة بطبيعة الأرض • وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى الدين والملة ، فتسمى : بالجغرافيا الدينية ، وتارة ينظر اليها من جهة اختلاف أهلها فى التدبير والسياسة والرسوم والقوانين ، فيسمى ذلك بالجغرافيا السياسية أو التدبيرية وتارة تعتبر من جهة التغيرات والتقلبات الحاصلة طول الأزمان المختلفة فى الأرض وفى أجزائها ، بالنسبة للدين والسياسة ونحو ذلك ، ويسمى ذلك بالجغرافيا التاريخية • وهذه هى الأصول ، والافالقسمة غير حاصرة ، ومن أراد الكلام على ذلك فعليه برسالتنا المسماة « بالتعريبات الشافية » بمريد (١) الجغرافيسة فانه موضح فيها غاية التوضيح ، غير أنه ينبغى لنا هنا الكلام على مسألة من مسائل علم الجغرافيا الرياضية التى هى علم الهيئة ، فنقول :

الافرنج قسموا الكواكب الفلكية الى ثوابت والى سيارة ، والى سيارة السيارة ، والى ذوات الذنب ، وعدوا الشمس من الثوابت ، والأرض من السيارة ، والقمر من سيارة السيارة ، أى التابعة فى السير للكواكب السيارة • وهذا المذهب يسمى عندهم مذهب « كبرنيق (٢) النيمساوى » ، وقد كشف المتأخرون منهم عدة كواكب سيارة لم يظفر بها المتقدمون ، لفقد الآلات عندهم ، ووجودها لهؤلاء الافرنج ، فبذلك بلغت السيارات المعروفة عندهم أحد عشر ، غير الشمس والقمر ، فان الأولى من الثوابت على رأيهم ، والثانى من

(١) الصواب : « لمريد » •

(٢) وفى الأصل كبرنيق وهو خطأ • Copernic

سيارة السيارة ، ولنذكرها لك على حسب قربها من الشمس ، فنقول: هي : عطارد ، والزهرة ، والأرض ، والمريخ ، و « وستة » (بكسر الواو ، سكون السين المهملة ، وفتح التاء المثنـاة) أي المجمـرة السيارة ، و « يونون » (بضم الياء والنون بعدها واو) وتسمى (زوجة المشترى) ويقال لها : بنت زحل ، و « سريس » (بكسر السين والراء بعدها ياء مسكنة) ويقال لها (أي السنبلة السيارة) و « بلاس » (بفتح الباء وتشديد اللام) ومعنـاه « أبو الفلق » والمشترك ، وزحل ، و « أورانوس » (بضم الهمزة وراء بعدها ألف ثم نون مضمومة) ومعناه الفلك الأعلى ٠

وهذه الكواكب الجديدة لا يمـكن رصد دورانها على نفسها إلا بصعوبة ، لصغر بعضها في رأى العين ، وبعد البعض الآخر ، بل لا يمكن رصد ما عدا « أورانوس » الابالنظارات الفلكية ، ولهذا سميت عند الافرنج بالسيارات النظاريـة ، ويؤمل الافرنج كشف غيرها من السيارات ٠

وأما التاريخ فهو أيضا مما ينبغى للانسان الاطلاع عليه ، لاسيما أرباب الدول ، ولنذكر لك هنا نبذة لطيفة ذكرها هنا بعض المؤلفين من الافرنج ، فنقول :

التاريخ مدرسة عامة يقصدها من أراد من الأمم أن يفوز بالتعلم وهو أيضا تجريبيات حوادث الأعصر التى تساعد الحال الراهنة ، ومن جهة اشتماله على عبر محفوظة يعين المرء على التفكر في ظاهر الآتى ، فمنه يعتبر من اعتبر من جميع الناس أيا ما كان مقامهـم ، لما أنه يظهر على رؤوس الأشـهاد الآثار الرديئـة المترتبة على تشاجرهم واختلافهم ، ومثل هذه الصورة المهولة تحملهم على التخلق بالأخلاق الحميدة مثل الحلم والعدل ، ومن التاريخ يفهم الملوك أنه في زمن سلطنـة ملك حسن التـدبير ينبغى أن تكون شـوكة الملك وكرسيه ظلا ووقاية قال « بسوه » : لو فرض أن التاريخ لا ينفع

غير الأمراء فانه يجب قراءته للأمراء ، ولكن انما يفتح التاريخ للعاقل كنوزه ، ليفهم منها خفياته ورموزه ° فيشغل فكره مدة قراءته عن تغيرات معيشة الانسان الباطلة ، ثم ينتقل من ذلك الى مادة أهم من ذلك ، فتنكشف له سلاسل الزمن العديدة التى تمس حلقتها الأخيرة خلق العالم ، أو ليس أن هذه السلاسل كميدان عظيم يطلع الانسان فيه دفعة واحدة على جميع الأمم والدول وأزمان كل ؟ فانظر الى هذا المحفل العظيم المحتوى على أرباب سعود ونحوس ، فكم فيه من مدائن دمرت ، ومن دول انقرضت ، ومن ممالك ذهبت واندثرت ومن محال خربت ، ومن مقابر عمرت ، فكأن كل شيء يؤول الى القبور ، وهى التى تعلو وحدها على ميدان الأرض ! فكم تظهر زينة الحياة الدنيا هينة حقيرة اذا نظر الانسان من سماء التاريخ ! وكم يظهر أن الجمعية التى فى زماننا يسيرة هينة بجانب جمعيات أهالى القرون والأعصار ، فشتان بين ملوك عصرنا الذين يمكن للناظر أن يقيس عظمها المحسوس ، وملوك تلك الأزمنة التى يظهر للأعين كأنهم جبال مرفوعة على دائرة أفق الأعصر السالفة ! وانظر ما تكون حروبنا الوقتية ، وحبنا للعلو والشرف المؤقتين ، عجائب منازعة السلف من مبدأ العالم ، على مكان من الأمكنة ، أو على شبر من أرض ، فمن نظر حق النظر فى عجائب التاريخ فانه يكتسى بثياب الجد ، ويتجرد من ملابس الهزل ، ويصعد على ذروات النظر فيرى تحت رجليه أن العالم بأسره أشبه ببحر محيط ، تسبح فيه سفن آمال الخلق وأمانتهم من غير دفة ، عرضة للرياح الشديدة ، وينتهى أمرها الى الانكسار على ما يصادمها من الشعوب ، ولا تجد من المراسى ما ترسى عليه غير فرضات القدم ! فاذا نظرت من هذا المحل ترى بعين مجردة عن الطمع حطام الدنيا الفانية ، والمديح الباطل المقصودين المرغوبين لكثير من الناس كلاشيء ، أو ليس أن للدهر نكبات ، وتغيرات فى جميع ماوهبه وأعطاه فأى مملكة أمنا على كرسيها من السقوط ؟ وأى دولة أيسنا على تختها من الارتفاع ؟ أو ما رأينا أن الهيكل الواحد

يتداول على محرابه عدة أديان متباينة ؟ وكم ارتكبت الرذائل حيث كانت الفضائل قاطنة ؟ وكم من قواعد فخر وغنى آل أمرهـا الى أن أعقبها الفقر والحقارة ؟ وكم شوهد أن الخشونة والتمدن يمشيان بهرولة على سطح الكرة ، ويتبادلان على أجزائها من غير تخلل واسطة بينهما ؟ وكيف قد آل أمرك أيتها المدائن التى كنت عامرة ببلاد آسيا ، وقد كنت تحكمين على جميع الأمم يامدن « نينيويونس » ، و « بابل » السحر ؟ أو « يا إصطخر » فارس ، وتدمر سليمان ، كيف صارت الآن مجالك خرابا ، وقد كنت كراسى دول العلوم فلم يبق لك من فخارك القديم ، وبهائك الجسيم غير الإسم وبعض رسم من حجر ! ومع ذلك فلم يحل ببلد من بلاد الدنيا ، من النكبات العجيبة والبلايا الغريبة ، مثل ما حل بمصر المباركة المصابة بالشقاء التى كانت خيولها تسبق سالفا خيول سائر الممالك فى الركض فى ميـادين الفخار والعلم والحكمة ! فكأن الدهر أراد أن يصب على هذه البـلاد دفعـة واحدة اما نعيم الانعام ، أو عذاب الانتقام ، مع أنه لم يكن من الأمم مثـل قدماء مصر ، فى كونهم بذلوا جهدهم فى الجلوس على مبانى هياكلهم المشيدة ، وأرادوا بذلك أن يكونوا مؤبدين ، فبادوا جميعا وانقرضوا ، حتى إن أهل مصر الموجودين الآن ليسوا جنسا من أجناس الأمم ، بل هم طائفة متجمعة من مواد غير متجانسـة ، ومنسوبون الى عـدة جنوس مختلفة ، من بلاد آسيا وأفريقية ، فهم مثل خليط ، من غير قياس مشترك ، وتقاطيع شكل صورهم لاتتقوم منها صورة متحدة بها يعرف كون الانسان مصريا من سحنته ، فكأنما سائر بلاد الدنيا اشتركت ، فى تأهيل بر النيل !؟ انتهى مترجما من مقدمة « الخواجه آكوب » فى تاريخ مصر .

وعلم التاريـخ واسع ، وإن شاء الله تعالى يصير التاريـخ عى اختلافه منقولا من الفرنساوية الى لغتنا وبالجملة فقد تكفلنا بترجمة علمى التاريخ والجغرافيا بمصر السعيدة بمشيئته تعالى .

الخــاتمة

(في رجوعنا من باريس الى مصر ، وفي عدة أمور مختلفة)

من المعلوم أن نفس القارىء لهذه الرحلة تتطلع الى معرفة نتيجة هذا السفر الذى صرف عليه مصاريف لم تسبق لأحد ، ولا سمع بها فى التواريخ عند سائر الأمم ، وانما تسطيرها : لأنها أنجبت علماء منهم من وصل الى رتبة أساطين الافرنـج ، فهم ما بين مدبر للأمور الملكية · حائز كمال الرتبة فى السياسات المدنية ، كحضرة صاحب البراعة واليراعة رب الطالـع السعيد · وذى (١) النجابـة والرأى السديد · عبدى أفنـدى ، وما بين متمكن فى معرفـة ادارة الأمور العسكرية · راق فيها الى درجة علية · وما بين ربانى بسائر الأمور البحرية ، أو خبير بالطب ، أو بالكيميا الصحيحة المرضية ، وبصير بالطبيعيات ، وماهـر فى علم الزراعة والنبـاتات ، ومنهم فائق الأقران فى الفنون والصنائع، وحرى بفتح (فبريقات) تشتهر ببراعته بغير منازع ، ولولا خوف الاطالة لذكرت جميع من ظفر بقصده من الأفندية ، على حسب حوزه للمراتب العلية · ولعمرى لا أستطيع عدم التعرض لعدة أشخاص قد بلغ فضلهم الغاية فى الامتياز ، غير أننى أسـلك فى ذكرهم غاية الايجـــاز ، كيف لا أقول ان حضرة مصطفى مختـــار بيك أفندى قد بلغ درجة كبـــار الفرنساوية ، فى علم ادارة المهمات العسكرية ، وقد حاز مرتبة سامية من العلوم وتمكن من المنطوق منها والمفهوم ، ولاشك أنه ممتاز بالعلوم التدبيرية، وجامع لمعارف الديار الافرنجية ، وسع الله به دائرة المعارف ، بممالك مصر والشام ، وليس كل من اكتسب المعارف ، يصدر عنه عمـل اللطائف · قال الشاعر :

---

(١) فى الأصل « وذو » وهو خطأ .

وعادة السيف أن يزهو بجوهره　　　　وليس يعمل الا فى يدى بطل

وأما حضرة حسن بك أفنــــدى ، وكذا الأفندية البحريون ، ففضلهم وكمال علومهم ثابت بالبرهــان ، يــدل عليه امتيازهــم بين الأقران ، شهرة اصطفان أفندى غنية أيضا عن البيان ، فقد حاز من العلوم ما حاز ، وفاز من الفنون بما فــاز • ولا ينكر فهم « الطــين أفندى » فى جميع أنواع العرفان ، ولا خليل أفندى محمود ، وتعلم أحمد أفندى يوسف مشهود غير مجحود • وبالجملة فالجل من الأفندية حصل المرام ، ورجع لنشر هذا بديار الاسلام •

ولنذكر هنا رجوع العبد الفقير الى مصر ليتم غرض هذه الرحلة فنقول : خرجنا من باريس فى شهر رمضان سنة ١٢٤٦ وسرنا نقصد مرسيليا ، لنركب البحر ونرجع الى اسكندرية ، فمررنا على مدينة « فنتنبلو » بقرب باريس بها قصر سلطانى ، وهذا القصر شهير بأن نابليون نزل فيه عن سلطنة فرنسا ، وخلعها عنه سنة ١٨١٥ من الميلاد ، ويشاهد به عمود على شكل الهرم مبنى من الحجارة ، والقصد منه أنه تبقى آثاره ، لتذكر رجوع « البربون » فى فرنسا ، فتجد مرسوما عليــه أسماؤهم وتاريــخ ولادتهم ، وغير ذلك • وفى هذه الفتنة الأخيرة محا الخلق هذه الأسامى ، فلا يشاهد منها الا الآثار • وهكذا عادة الزمان ، فى تلونه بجميع الألوان ، وغدره وفتكه بقوم ، واقباله على آخرين قبل تمام يوم • قال الشاعر :

قتلت صناديد الرجال فلم أدع　　　　عدوا ولم أمهل على جيشه خلقا
وأخليت دار الملك بعد ملوكهم　　　　فشردتهم غربا وبددتهم شرقــا
فلما بلغت النجسم عزا ورفعة　　　　وصارت رقاب القوم اجمع لى رقا
رمانى الرداسهما فأخمد جمرتى　　　　فها أناذا فى حفرتى عاطلا ملقى

وكتابة تلك الرســــــوم من عادة الافرنج ، تأســـيا بالسلف من أهــالى مصر وغيرهم • فانظـــر الى بنـــاء أهل مصر للبرابى وأهرام الجيزة ، فانما بنوها لتكون آثارا ينظر بعدهم اليها من رآها •

ولنذكر لك آراء الافرنج فيها ، وما ظهر لهم بعد البحث التام حتى تقابله بما ذكره المؤرخون فيها من الأوهام • فنقول :

ملخص كلام الافرنج : أن الذى بناها هو ملوك مصر ، وأنه اختلف فى زمن بنائها • فبعضهم زعم أنها بنيت من منذ ثلاثة آلاف سنة • وأن البانى لها ملك يقال له : «قوف»(١) وبعضهم قال ان البانى لها ملك يقال له : « خميس » أو « خيوبس » ، والأظهر أن أحجارها منحوتة من صعيد مصر لا من البحيرة • وقال بعضهم : ان مدة بنائها لم تكن أزيد من ثلاث وعشرين سنة • وأن العملة الذين بنوها كانوا ثلثمائة وستين ألف نفس ، ولكن بمصاريف عظيمة ، حتى ان ما صرف على البصل والكرات للعملة يبلغ على ما قاله « بلنياس » نحو عشرين مليونا من القروش المصرية ، ثم ان هذه الأهرام تنسب الى أحد ملوك الفراعنة ، وأنه أعد الهرم الأكبر ليضم جثته ، والآخرين لدفن زوجته وبنته ، فلم يدفن هو فى الأول بل بقى هذا لهرم الآن مفتوحا • وأما الهرمان الآخران فدفنت فيهما بنته وزوجته ، وسدا سدا محكما • هذا ما حكاه الافرنج فى شأن الأهرام ، ومما قيل فى عظم بناء الهرمين العظيمين :

خليلى ما تحت السماء بنية يشابه بنياها بنا هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما على الأرض يخشى دائما سطوة الدهر

وقال بعضهم فى الأهرام ، مضمنا عجز بيت من معلقة طرفة .

لقد بت بالأهرام حول أحبة جفونى ببرد يابس وتجلد
يقول بها صحبى لبرد جليدها وهجرى : لا تهلك أسى وتجلد

قال السيوطى فى منتهى العقول : انه يتعجب من قول العلماء ، ان أعجب ما فى مصر الأهرام ، مع أن البرابى بالصعيد أعجب منها ، والبرابى هى المشهورة عند العامة بالمسلات • ولغرابتها نقل منها

(١) لعله خوفو •

الافرنج اثنتين الى بلادهم : احداهما نقلت الى رومة فى الزمن القديم ، والأخرى نقلت الى باريس فى هذا العهد •

وأقول : حيث ان مصر أخذت الآن في أسباب التمدن ، والتعلم على منوال بلاد أوروبا فهى أولى وأحق بما تركه لهـا سلفهـا من من أنواع الزينـة والصناعة ، وسلبه عنها شـيئا بعد شيء بعد عند أرباب العقول من اختلاس حلى الغير للتحلي به ، فهو أشبه بالغصب ، واثبات هذا لا يحتاج الى برهان ، لما أنه واضح البيان • وقد صنع نابليون فى باريس عمودا مفرغا من المدافع التى سلبها من الموسقو والنمسا ، وقد حاول الموسقو اسقاطه حين حلولهم بباريس، فما ظهر الا عجزهم عن ذلك •

ثم بعد أن جزنا « فنتنبلو » شاهدنا مدينة « تيمور » (١) بعد سير أربع ساعات من « فنتنبلو » وهى على عشرين ساعة من باريس ، ثم بعدها مررنا على مدينة « كونة » (٢) على شط نهر « الورة » (٣) وهى مدينة تصنع فيها الهلاليب للمراكب السلطانية ، ثم على مدينة « مولن » (٤) ، وبها كثير من أولاد العرب الذين صحبوا الفرنساوية من مصر الى فرنسا ثم سرنا حتى وصلنا مدينة « رونة » (٥) وهى على سبعـة وتسعين فرسخا فرنساويا على جنوب باريس ، قبـل الوصول الى مدينة « ليون » (٦) بثلاثة عشر فرسخا ، وأهلها تسعة آلاف نفس ، وبها ديوان مشورة (للفبريقات ؛ ومشورة للزراعة ، وكتبخانة (٧) ومخزن آلات طبيعية وهندسة ، وبها قنطرة ظريفة

(١) Nemours .
(٢) Cosne
(٣) Loire
(٤) Moulins
(٥) Roanne
(٦) Lyon.
(٧) المكتبة هى الكتبخانة •

على نهـر « لوار » ورصيف مشهور ، وهى ساحـل لمركز تجارات « ليون » وغيرها من سـائر أنواع البضائع ، وبأراضيها مقاطع الرخام ٠

ونهر « لوارة » يمكن المسير فيه بقـرب هذه المدينـة : وهذه المدينة غير مدينة « روان » البعيدة عن باريس جهة الشمال بثلاثين فرسخا ، والتي يمر بها السين ، والتى هى من اقليم « نورمنديا » ٠

ثم وصلنا الى مدينة ليون ــ وقد تقدم الكلام عليها ــ ثم وصلنا الى مدينة « اورغون » (١) التى على جنسوب باريس بمائة وثمانية وسـبعين فرسخا فرنساويـا وهى فى سفح جبـل ــ شهيرة بكون نابليون حال عبوره بها تخفى ، خوفا من أهلها ، ولا زلنا نمر ببلاد حتى وصلنا الى « مرسيليا » وقد تقدم الكلام عليها مستوفى (٢) ٠ ومنها نزلنا فى سفينة تجارية ، وسرنا قاصدين اسكندرية ، ولا حاجة أيضا الى ذكر ما شاهدناه ، لأنه عـين ما سبق فى المقصد ــ غايـة ما نقول ان كل من يعرفنى من الفرنساوية طلب منى أننى بمجرد دخولى اسكندرية أذكر ما يقرع فكرتى مما أستغربه لبعد عهدى من مصر ، ولرؤيتى خلافه فى بلاد الافرنج ، وتعودى على مشاهدة غيره يظهر لى غرابة ما أراه أول وهلة ، حين وصولى ، فوعدت ، ووفيت ٠

هذا حاصل ما كان لخصته (٣) ، حسب الامكان ، فلم يبق علينـا حينئـذ الا ذكر خلاصـة هذه الرحلة ، وما دققت فيه النظر وأمعنت فيه الفكر ، فأقول : ظهر لى بعد التأمل فى آداب الفرنساوية وأحوالهم السياسية أنهم أقرب شبها بالعرب منهم للترك ، ولغيرهم من الأجنـاس ، وأقوى مظنـة القرب بأمور ، كالعرض والحرية

---

(١) La Ville d'Orgon

(٢) فى الأصل : « مستوفيا » ٠

(٣) فى الأصل « لخصت » ٠

والافتخار ، ويسمون العرض شرفا ، ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عاهدوا عليه ، ووفوا بعهودهم ، ولاشك أن العرض عند العرب العرباء أهم صفات الانسان ، كما تدل على ذلك أشعارهم ، وتبرهن عليه آثارهم . قال الشاعر :

وانى لحلو للصديق ، وانني ... لمر لذى الأضغان أبدى له بغضى
وانى لأستغنى فما أبطر الغنى ... وأبذل ميسورا لمن يبتغى قرضى
وأعسر أحيانا فتنفذ عسرتى ... وأدرك ميسورالغنى ومعى عرضى

وهتك العرض : هو ما يعبر به عندهم بالسبة والعار ، قال الشاعر :

تعيرنا أنا قليل عدادنا (١) ... فقلت لها ان الكرام قليل
وماضرنا أنا قليل وجارنا ... عزيز ، وجار الأكثرين ذليل
يقرب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهـــه آجالهـــم فتطول
وانا لقوم ما نرى القتل سبة ... اذا ما رأتــه عامــر وسلول
اذا سيد منا خلا قام سيد ... قؤول لما قال الكرام فعــول
سلى ان جهلت الناس عناو عنهم ... فليس سواء عــالم وجهول

ولا يظن بهم أنهم لعدم غيرتهم على نسائهم لأعرض لهم فى ذلك، حيث ان العرض يظهر فى هذا المعنى أكثر من غيره ، لأنهم وان فقدوا الغيرة ، لكنهم ان علموا عليهن شيئا كانوا شر (٢) الناس عليهن ، وعلى أنفســهم ، وعلى من خانهم فى نسائهم ، غاية الأمر أنهم يخطئون فى تسليم القياد للنساء ، وان كانت المحصنات لا يخشى عليهن شىء كما قال الشاعر :

اذاغاب عنها البعل لم تفش سره ... وترضى اياب البعل حين يؤوب

---

(١) الرواية المشهورة : « عديدنا » .
(٢) فى الأصل « أشر » .

قال الزمخشرى ، عند قوله تعالى : حكاية عن قول العزيز : « واستغفرى لذنبك انك كنت من الخاطئين » : ما كان العزيز الا حليما، وقيل : انه كان قليل الغيرة قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، فى تفسير هذه الآية الكريمة : وتربة مصر اقتضت هذا يعنى قلة الغيرة ، وأين هذا مما جرى لبعض ملوك بلادنا ، وهو أنه كان مع ندمائه الخصيصين به فى مجلس أنس وجارية تغنى وراء الستارة فاستعاد بعض جلسائه بيتين من الجارية ، وكانت قد غنت بهما ، فمالبث أن جئ برأس الجارية مقطوعا فى طشت ،وقال له الملك استعد البيتين من هذا الرأس ، فسقط مغشيا عليه ، ومرض مدة حياة ذلك الملك ! أقول : وأين غيرة هذا الملك من غيرة عبد المحسن الصورى على محبوبه ، حيث قال :

تعلقته سكران من خمرة الصبا — به غفلة عن لوعتى ونحيبى
وشاركنى فى حبه كل ماجد — يشاركنى فى مهجتى بنصيب
فلا تلزمونى غيرة ما ألفتها — فان حبيبى من أحب حبيبى

انتهى « سكردان ابن حجلة صاحب ديوان الصبابة » وبالجملة فسائر الأمم تتشكى من النساء ولو العرب ، قال الشاعر :

لقد باليت مظعن أم أوفى — ولكن أم أوفى لا تبالى

وقال آخر :

فان تسألونى بالنساء فاننى — بصير بأدواء النساء طبيب
اذا شاب رأس المرء أو قل ماله — فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المال حين علمنه — وشرخ الشباب عندهن عجيب

وحيث ان كثيرا ما يقع السؤال من جميع الناس على حالة النساء عند الافرنج كشفنا عن حالهن الغطاء ، وملخص ذلك أيضا :

أن وقوع اللخبطة (١) بالنسبة لعفة النســاء لا يأتى من كشفهن أو سترهن ، بل التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة والالتئام بين الزوجين . وقد جرب في بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات الى الرتبة الوسطى من الناس دون نساء الأعيان والرعاع ، فنساء هاتين المرتبتين يقع عندهم الشبهة كثيرا ، ويتهمــون فى الغالب ، فكثيرا ما كانت تتهم الفرنساوية نساء العائلة الملكية المسماة «البربون»، على أن مما يقوى كلامهم ما وقع لزوجــة ابن ملك فرنسا المعزول التى هى أم « الدوك دوبردو » الذى خلع عليه جده المملكة بعد عزله ، ولم يقبله الفرنساوية ، وقالوا ان هذا الولد ابن زنا ، فان أمه ولدت ولدا آخر من الزنا ، وادعت أنهـــا تزوجت سرا ، فانكسر بذلك ناموسها ، وبعد أن كانت تطلب مملكة فرنسا لابنها الأول ، وكانت آخذة فى أسباب توليته ، وكان يخشى منها وقوع شىء فى المملكة ــ سقطت من الأعين ، وبعد أن وقعت فى يد الفرنساوية ، وكان يظن هلاكها ، تركوا سبيلها قائلين : انها صـــارت مهملة ورجعت الى أهلها بولدها الأخير .

ومن أغرب ما وقــع ببــلاد الافرنــج فى هذا الأمر : أن ملك الانكليز « جرجس الرابع » اتهم زوجته بالفاحشة بعد أن عهد منها ذلك المرار العديدة ، واشتهرت بذلك عند الخاص والعام ، لكونها كانت تسافر ببلاد الافرنج مع من تريد ، ولها فى كل محل عشاق ، فلما رفع أمرها عند شرعهم ، وأقيمت الدعوى كمــا ينبغى ، وقصد باثبات زناها طــلاقها ليتزوج بغيرهــا ، فلم تثبت أمور كافيــة فى الطلاق ، فحكم القاضى بابقائها على عصمته قهرا عنه ، فبقيا متفرقين ، ولكن لم يتزوج غيرها ، وذاع أمرهما وشاع ، ولكن فى الحقيقة وان كان يعتقد فيها ذلك الا أنه بمجرد القرائن لا بالمشاهدة ، الا لانثلم

---

(١) لعله يريد الاختلاط .

عرضه ، فمادة العرض التى تشبه الفرنســاوية فيها العرب هو اعتبار المروءة وصدق المقال ، وغير ذلك من صفات الكمال •

ويدخل فى العرض أيضا العفـاف ، فانهم تقـل فيهم دناءة النفس ، وهذه الصفة من الصفات الموجودة عند العرب ، والمركوزة فى طباعهم الشريفة ، وان كانت الآن قد تلاشت فيهم ، واضمحلت فانما هو لكونهم قاسوا مشاق الظلم ، ونكبات الدهر ، وأحوجهم الحال الى التذلل والسؤال ، ومع ذلك فقـد بقى منهم من هو على أصل الفطرة العربية ، عفيف النفس على الهمة ، كما قال الشاعر :

فدعنى ونفسى والعفـاف فاننى　　أخذت عفافى فى حياتى ديدنى
وأصعب من قطع اليدين على الفتى　　صنيعة بر نالها من يدى دنى

وأما الحرية التى تتطلبها الافرنج دائما فكانت أيضا من طباع العـرب فى قديم الزمان ، كمـا تنطق به المفاخرة التى وقعت بين « النعمان بن المنذر » ملك العرب ، « وكسرى » ملك الفرس •

وصورتها : أنه قدم النعمان على كسرى ، وكان عنـده وفود الروم والهند والصين والعجم والترك وغيرهم ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم وعماراتهم وحصونهم ، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، ولم يستثن فارسا ولا غيرها •

فقال كسرى ، وقد أخذته الغيرة : يانعمان ، لقـد فكرت فى العرب وفى غيرهم من الأمم ونظرت فى حال من يقدم على من الوفود ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظيم سلطانها وكثرة مدائنها ، ووثيق دينها •

ورأيت الهنـد شهيرة الحكماء طيبـة الثراء ، كثيرة الأنهار ، والبلاد والثمار ، عجيبة الصناعة ، مرونقة الحسان ، معمورة بالأهل •

وكذلك الصين عجيبة فى اجتماعها ، وكثرة صنائع أيديها ، وهمتها في الحروب وصنعة الحديد ، وأن لها ملكا يجمعها .

وكذلك الترك مع ما هم عليه من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون ، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس ، فان لهم بعد ذلك ملوكا تضم قاصيهم ، وتدبر أمورهم .

ولم أر للعرب شيئا من ذلك من خصال الخير فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حرمة ولا قوة ، ولا عقد ، ولا حكمة ، مع ما يدل على تدانيها وذلها ، وضعف همتها ، بحالهم التى هم بها مع الوحوش النافرة ، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضا من الحاجة . قد حرموا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها ، وأعظم طعام ظفروا به لحوم الابل التى يعافها كثير من الطيور والسباع ، لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها ، وان قرى (١) أحد ضيفا اعتدها مكرمة ، وان أطعم لقمة عدها غنيمة ، تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ، ما عدا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ومنعها من عدوها ، ليجرى له ذلك الى يومنا هذا ، فان لها مع ذلك آثارا وحصونا وأموالا تشبه أموال بعض الناس . لكنى أراكم لا تسكتون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخرون ، وتريدون أن تنزلوا فوق مراتب الناس .

فقال النعمان : أصلح الله الملك ، صدقت ان هذه الأمة تسمو بفضلها ، وبعظم خطبها ، وعلو درجتها ، الا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك من غير رده عليه ، ولا تكذيب له ! فان أمنتنى من الغضب مما أتكلم به فعلت .

---

(١) فى الأصل « اقرى » .

قال كسرى : [تكلم] وأنت آمن ، فقال النعمان : أما أمتك فلا تنازع في الفضل لموضعها التي هي به من عقولها وأخلاقها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما كرمها الله تعالى به من ولايتك وولاية آبائك وأجدادك ، وأما الأمم التي ذكرت فما من أمة الا فضلتها العرب بفضلها ·

قال كسرى : لماذا ؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها وذمتها وبأسها ورياستها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ووفائها ·

فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك وأجدادك الذين فتحوا البلاد ، ووطئوا العباد ، وأقاموا الملك ، وقادوا الجيوش ، ولم يطمع فيهم طامع ، ولم يزالوا عندهم محترمين، ولا نال أحدا منهم نائل ، بل حصونهم ظهور خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء والى جانبهم السيوف ، وعدتهم السقف ، اذ غيرها من الأمم ، انما عزها بالحجارة والطين والجزائر والبحور والقلاع والحصون ·

وأما حسن وجوهها وألوانها ، فقد يعرف بذلك فضلهم على الهند المحترفة ، والصين المتجمشة ، والترك المشوهة ، والروم المقترة الوجوه ·

وأما أنسابها وأحسابها : فليس أمة من الأمم الا وقد جهل آباؤها وأصولها ، وكثير من أولها وآخرها ، حتى ان أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسب ، ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب الا ويسمي آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم · وحفظوا بذلك أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير أبيه ·

وأما شجاعتها وسخاؤها : فان أدناهم رجلا يكون عنده البكرة والناب ، عليها بلغته وحمولته وشبعه وريه ، فيطرقه الطارق الذي

يغتذي بالفلذة ، ويجتزيء (١) بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج له عن دنياه كلهـا فيما يكتسبه من حسن الأحدوثـة وطيب الذكر والثناء ٠

وأما حكمة ألسنتها : فان الله تعالى أعطاهم أشعارا ، ورونق كاملا ، وحسن وزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالاشارة وضربهم الامثال: وبلاغتهم في الصفات ما ليس من ألسنة الأجناس ٠

ثم ان خيولهم أفضل الخيول ، ونساءهم أعف النساء ، ولباسهم أحسن اللباس ، ومعادنهم الذهب والفضة ، وأحجار جبالهم الجزع ، ومطاياهم التي لا يبلغ الا على مثلها سفر ، ولا يقطع الا بمثلها بلد قفر ٠

وأما دينها وشريعتها ، فانهم متمسكون به أعظم تمسك ، وان لهم أشهرا حرما ، وبلدا محرما ، وبيتا محجوجا ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل فيه قاتل أبيـه وأخيه ، وهو قادر على أخـذ ثأره منه وادراك رغمه فيه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله إياه ، احتراما لذلك البيت وتشريفا له ٠

وأما وفاؤهم : فان أحدهم يلحظ اللحظة ، فهي عقد لأهلها ، لا يرجع عما أضمره في نفسه حتى يبلغه ، وا أحدهم يرفع عودا من الأرض ، فيكون رهنا بدينه فلا يطلق رهنه ولا يخفر ذمته ، خوفا من الله تعالى ، وان أحدهم يبلغه أن أحدا استجار به وعسى أن يكون نائيا عن داره ، فيمنع عنه عدوه ، ويحميه منه ولو تفنى قبيلته ، أو تلك القبيلة التي استجار عليها ، وذلك لما أخفر من جواره ، وان أحدهم ليلجأ اليه المحروم ، والمحدث عنه ، بغير معرفة ولا قرابـة فينزلونه عندهم ، وتكون أنفسهم وأموالهم دون ماله ٠

---

(١) في الأصل « يقتدي بالعادات ، ويجترى » وهو تحريف ٠

وأما قولك أيضا الملك ، حفظك الله : انهم يقتلون أولادهم من الحاجة فانما يفعله من فعله منهم زغم أنفه حذرا من العار ، وخيفة وغيرة من الأزواج •

وأما قولك أيها الملك : ان أفضل طعام ظفروا به لحوم الابل على ما وصفت منها فما تركوا مادونهسا الا احتقارا له ، فعمسدوا الى أجلها وأفضلها ، فكانت مراكبهم ومطاعمهم ، من أنها أكثر البهائم لحوما ، وأطيبها شحوما ، وأرقها البانا ، واقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وانه لاشيء من اللحوم يفاخر لحمها الا استبان فضلها عليه •

وأما محاربتهم وأكلهم بعضهم بعضا ، وتركهم الانقياد الى رجل واحد يسوسهم ويدبر أمورهم ، فانما يفعل ذلك من الأمم من علمت الضعف من أنفسسها ، وتخوفت من نهوض عدوهسا عليها ، فانهسم يحتاجون الى ملك ، يدبر أمرهم ، ويكون رجلا من أعظمهم شأنا وقدرا، ويكونون معترفين بشرفه على سسسائرهم فينقادون اليه بازمتهم ، وينقادون الى أمره •

وأما العرب : أيها الملك ، فان كثيرا فيهم ، لعظم كرمهم ووفائهم، ودينهم ، وحكمة ألسنتهم ، وسخاء نفوسسهم يقولون : انهم ملوك بأجمعهم مع رفعتهم ، فلا ينقاد أحد الى الآخر فانهم أشراف •

وأما اليمن ، التي وصفها الملك : فان آباءك وأجسدادك أعلم بصاحبها لما أتاه ملك الحبشة في مائتي ألف ، وتغلب على ملكه وجاء الى بابك وهو مستصرخ ذليل حقير مسلوب فلم يجره أحد من أجدادك ولا آبائك ، فاستجار بالعرب فأجاروه ، ولولا ما وتر به من بلية العرب لمال الى نقص ، ولم يرجع الى محله ، ولولا أنه وجد من يجيد معه الطعان بقتل الأحرار ، وتبدد شمل الكفار ، وبذبح العبيد الأشرار لم يرجع الى اليمن •

قال فعجب كسرى مما جاء به النعمان ، ثم قال له : انك لأهل لموضعك من الرياسة ولأهلك ولأهل اقليمك ، ولما هو افضل منه

ثم كساه وأنعم عليه وأعطاه أشياء جزيلة ثم سيره الى موضعه من الحيرة ، ثم بعد سير اليه وقتله ٠

والتنوخية فرقة من اليمن ، وقال المتنبى على لسان بعضهم :

قضاعة تعلم أنى الفتى الـ ذى ادخرت لصروف الزمان
ومجدى يدل بنى خندف على أن كل كريم يمان
أنا ابن اللقاء أنا ابن السخاء أنا ابن الضراب أنا ابن الطعان
أنا ابن الفيافى أنا ابن القوافى أنا ابن السروج أنا ابن الرعان
طويل النجاد طويل العماد طويل القناة طويل السنان
حديد اللحاظ حديد الحفاظ حديد الحسام حديد الجنان
يسابق سيفى منايا العباد اليهم كأنهم فى رهان
يرى حده غامضات القلوب اذا كنت فى هبوة لا أرانى
سأجعله حكما فى النفوس ولو ناب عنه لسانى كفانى

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حضر رجل من أهالى مصر الى عمر ابن الخطاب ، وجعل يشكو من عمرو بن العاص ، فقال: يا أمير المؤمنين ان هذا مقام العائذ ٠

فقال عمر : لقد عذت فما شأنك ؟ قال تسابقت بفرسى أنا وابن عمرو بن العاص فسبقته ، فحمل على بسوط فى يده ، وجعل يقنعنى بالسوط ، ويقول لى أنا ابن الأكرمين : وبلغ ذلك لعمرو بن العاص فخشى أن آتيك لأشتكى ولده وحبسنى فتفلت من الحبس، وها أنا قد آتيتك ٠

قال : فكتب كتابا : من عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص ، انه اذا أتاك كتابى هذا فاحضر الموسم يعنى الحج أنت وابنك ٠ ثم التفت الى المصرى ، وقال له : قم حتى يأتى غريمك ، فلما حضر عمرو ابن العاص وابنه الحج وجلس عمر بن الخطاب وجلسوا بين يديه ، وشكى المصرى كما شكى أول مرة ، فأومأ عمر بن الخطاب ؛

وقال له خذ الدرة وانزل بها عليه : قال : فدنا المصرى من ابن عمرو بن العاص ، ونزل عليه بها ٠

وعن أنس قال : والله لقد ضربه ، ونحن نشتهى أن يضربه ، فلم يزل يضربه حتى استحببنا أن لا يضربه ، وذلك من كثرة ما يضر به، وعمر رضى الله عنه يقول اضرب ابن الأكرمين ٠

قال عمرو بن العاص : قد شفيت يا أمير المؤمنين ، قال عمر بن الخطاب للمصرى أنزع عمامته ، وضع الدرة على صلعة عمر ، فخاف المصرى من ذلك ، وقال يا أمير المؤمنين قد ضربت من ضربنى فما لى أضرب من لم يضربنى ٠

فقال عمر رضى الله عنه : والله لو فعلت لما منعك احد ٠

ثم التفت رضى الله عنه ، وقال لعمرو بن العاص : متى استعبدتم (١) الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم (٢) ، أحرارا ٠ انتهى ٠

فمنه يفهم أن الحرية أيضا من طباع العرب من قديم الزمان ٠

هذا ، ولا ينبغى لنا أن نختم هذه الرحلة من غير أن نشكر محاسن من ساعد الوالى فى نجاح مقصوده من ترتيب أمور التلامذة وتعليمهم بمدينة باريس محب البلاد المصرية وأهلها«الخواجة جومار» فانه يسعى بهمته ورغبته فى تنفيذ مقصد الوالى ويسارع فى المصلحة بلا انكار فكأنه من أبناء مصر البارين بها فهو جدير بأن ينظم فى سلك المحبين ٠

ومما يدل على ذلك غاية الدلالة ما ذكره فى روزهامته ، التى ألفها ، لا ستعمال مصر والشام سنة ألف ومائتين وأربع وأربعين من الهجرة ، فانه ذكر فيها أنه ان صدرت له ارادة [من الوالى] ليؤلفن

---

(١) فى الأصل « متى استعبدت من ناس » ٠

(٢) فى الأصل « وقد ولدتهم أمهم » ٠

كل عام روزمانة بهذا الوضع ، ليعين على حسن تمدن الايالات المصرية ، فمن جملة ما قاله فى مقدمته أنه يذكر فى هذه الروزنامة عدة أمور :

الأمر الأول : الدلالة على تقدم الحرف والصنائع اللازمة لمصر من أولها لآخرها ٠

الثانى : تجارة أهالى أوروبا وآسيا وأفريقية كقوافل بلاد البربر ودارفور وسنار وبلاد الحجاز ، ومقابلة الأقيسة والمكاييل والموازين المختلفة باختلاف البلاد المستعملة هى فيها ٠

والثالث : ذكر أمور الزراعة فانها كانت سببا فى سالف الأعصر فى غنى أهل مصر ، فلهذا ينبغى أن تكون أول ما تهتم به الدولة فى مملكة مصر الطيبة التربة والزراعة كثير الفروع المهمة ، فمن ذلك علم توفير المصايف الخلائية ، ويتشعب عنه اصلاح المزارع، والمروج المستحدثة المدبرة وتتميم زراعة القطن والنيلة والعنب والزيتون والتوت واستخراج دقيق النيلة ، واستخراج انواع كثيرة من الزيوت ، ومعرفة تربية النحل ودود القز ، ودود الصباغة ، وتعهد الحيوانات الأهلية ، وتحسين الحيوانات البلدية بعزلها عن غيرها كالخيل والمعز ، وحيوانات الأصواف ، وجلب البهائم البرانية ومعرفة طب البهائم ، ومعالجة أمراضها كمرض « السواف » وحفظ الحبوب من السوسة ، وغرس الأشجار ، وترتيبها بحافات الطرق ، وخدمة البساتين وسائر الأبنية الخلائية المناسبة لصالح الزراعة ٠ وفى مادة الزراعة نذكر الترع والخلجان المعدة لسقى الأراضى وللأسفار ، وكذلك نذكر الطرق والجسور والقناطر فى السهول والجبال المعدة لتوصيل المياه ، فهذه كلها تذكر فى الفلاحة ٠

الرابع : نتكلم على أمور مختلفة من علوم الطبيعة ومن علم المواليد الثلاثة ، ومن العلوم الرياضية وهنالك نتكلم على المادة

المغناطيسية التى تستعملها الأطباء فى معالجة الشلل ونحوه ، وكذلك القوة الكهربائية ، والحرارة الكروية ، والحوادث السماوية، والندى ، والمطر الذى يحدث بين المدارين ، وكذلك نتكلم على أحجار الصواعق ، وعلى جبال النار المسماة بالبركانية ، وعلى الآلات الطبيعية كميزان الزمان ، وميزان الحر ، وميزان الرطوبة ، ووقاية الرعد ، والنظارات الفلكية ، والنظارات المعظمة للأشياء الدقيقة التى لا يدركها النظر .

ونتكلم أيضا على علم المعادن واستخراجها وقطع الحجارة من مقاطعها ، وعلى علم الحشائش الطبية ، والنباتات المستعملة فى الفنون والصنائع ، وعلى البهائم النافعة ، وعلى علم الجبر والمقابلة والهندسة .

الأمر الخامس : يشتمل على جملة فروع من علم توفير المصاريف وسياسة الدولة ، وعلى تنبيهات على علم أحوال الممالك والدول ، وعلى سبب ثروتها وغنى أهلها ، وعلى أحوال المعاش والمعاد وعلى ولادة الذكور والاناث فى كل بلدة من البلاد ، وعلى الادارة الملكية، وعلى الأصول العامة المستعملة أساسا لسياسات الأفرنج ، وهى الحقوق العقلية والحقوق القانونية والحقوق البشرية ، أى الحقوق التى للدول بعضها على بعض .

السادس : سياسة الصحة العمومية والخصوصية ، ففى ذلك نتكلم على تلقيح البقرى للجدرى ، وعلى الطاعون ومعالجاته ، وعلى الأمراض والعوارض العامة وعلى بعض تشريح .
السابع : نذكر فيه جملة تعليمات مختلفة من مسائل أدبية وفلسفية ولغات وعلوم مثل علم الفصاحة ، وفيه نتكلم أيضا على المكاتب والمدارس فى البلاد المختلفة ، ونبذات فى تواريخ البلاد خصوصا مصر ، وعلى حكايات ونوادر من غرائب الآداب والبلاغة الافرنجية والمشرقية ، وكذلك نذكر شيئا من علم المنطق ، ونبين الوسائط

المسهلة المعلمة بالايجاز للقراءة والكتابة والحساب ، وطرق تعليم هذه الأشياء في أقرب زمن لسائر العامة ٠

الثامن : نبحث فيه عن عدة أشـيـاء متنوعة ، وفيه نذكر أخبار التجارة والسفن البحرية واقامة العربات العامة وتحسين الطرق والترع والخلجان والقناطر المعلقة ، والاشـــارة المسماة تيلغراف ــ يعنى اشــارة الأخبــار ــ وجميع الأشغال المتجددة عند الافرنج ، ونضم لذلك لوحات أشكال لكمال الفائدة ، وكذلك نرسم خرطـات جغرافيـة وصـور النبـاتات والحيوانات التى تنقل من البلاد الغريبة وتربى فى مصر ، ونذكر كثيرا من الأمور التى تتجدد على تداول الأزمان ٠ وبالجملة فنذكر نبذا صغيرة متشعبة من أصول عظيمة ومستفادة من أفواه الثقات سهلة الفهم لسائر الناس ، ولا نستعير منها شيئا من صحاب الكتب انتهى كلامـه ٠ ولم ينجز ما وعد به لأنه علق ذلك على الارادة السنية ولم يصدر له أمر الى الآن ٠ وبالجملة فهو من المولعين بحب مصر ظاهرا وباطنا ومن الراغبين فى خدمة الوالى حبا له ولدولته ٠

وهذا آخر ما يسره الله سبحانه وتعالى فى ذكر حوادث السفر لتلك الجهة التى لا ينكر معارفها الا من لا انصاف عنده ولا معرفة له ، قال الشاعر :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمـد
وينـكر الفـم طعم الماء من سقم

والفضل كالشمس لا يخفى على أحد
الا على أكمـه عمـا يـراه عمى

ولا ينبغى أن يمنع ذو الحق حقه ، كما قال الشاعر فى هذه الأبيات المملوءة من الحكمة :

اذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيما ولا توصـه

وان ناصح منك يوما دنا　　فلا تنأ عنه ولا تقصه
وان باب أمر عليك التوى　　فشاور لبيبا ولا تعصه
وذو الحق لا تنتقص حقه　　فان القطيعة فى نقصه
ولا تذكر الدهر فى مجلس　　حديثا اذا كنت لم تحصه
وقص الحديث الى أهله　　فان الوثيقة فى قصه
ولا تحرصن فرب امرىء　　حريص مضاع على حرصه
وكم من فتى ساقط عقله　　وقد يعجب الناس من شخصه
وآخر تحسبه أنوكا　　ويأتيك بالأمر من فصه

ولا أحد يخلص من قال الناس وقيلهم ، كما قال الشاعر :

ومن ذا الذى ينجو من الناس سالما　　وللناس قال بالظنون وقيل

وحيث كان العمل بالنية ، والمدار على حسن الطوية • فلا معول على من لم يكن نير السياسة • ساطع الكياسة ، ولا اكتراث الا بمن رقى رتبة عليه فى الوسوم والقوانين وتشبث بالشريعة ، وكان فيهما ذا رياسة • ودرى أن القصد انما هو حس أهل ديارنا على استجلاب ما يكسبهم القوة والبأس ، وما يؤهلهم لاملائهم الأحكام على هؤلاء الناس •

وبالجملة فنحن الآن على ما كان عليه الأمر فى زمن الخلفاء العباسية ، كما قال الشاعر :

وأزرق الصبح يبدو قبل أبيضه　　وأول الغيث قطر ثم ينهمل

ولبعض أقاربى :

يا من غدا معجبا مما اقترحت وقد　　أضحى يروم مقال العاذل اللاحى
أما رأيت اذا شمس الضحى غربت　　يلجا الحريص الى ضوء بمصباح

وقال آخر :

ليس الفتى بفتى لا يستضاء به ولا يكون له فى الأرض آثار

وعلى كل حال فأرجو ممن نظر فيه أن يتصفحه بجملته ، ليكون على بصيرة مما يقول ، فان المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل منه ، ولا أقول الا كما قال الشاعر :

فاليك وشيا حاكه فى الطرس ذو باع قصير
واستر اذا عيب بدا والله يعفو عن كثير

تعليـــق

رفاعة رافع الطهطاوى :

المفـــكر والمعلم

سيرة حياة المعرفة والحرية :

فى شهر أكتوبر من عام ١٨٠١ ، خرجت من مصر حملة نابليون بونابرت ، أول حملة استعمارية على الشرق ترغم على الانسحاب من « مستعمرتها » المسلوبة ، دون شروط • وأخـذت الحملة معها فى صندوق من الرصاص جثة كليبر ، خليفة نابليون فى قيادة الحملة وحكم المستعمرة ، وأول جنرال استعمارى تعدمه يد الثورة الوطنية فى الشرق • وأخذت الحملة أيضا كتاب « وصف مصر » الذى وضعه علماؤها ، بينما سلمت للانجليز « حجر رشيد » الذى سيؤدى فك طلاسمة بعد سنوات الى ازالة ستار الغموض والجهل عن أعظم وأعرق حضارات الانسان القديم • ولكن الحملة تركت وراءها روح المقاومة التى أثارتها والثقة فى النفس واكتشاف الذات بعد قرون الاستسلام والخنوع والضياع ، كما تركت الحملة وراءها عددا من الرجال الذين صدمهم التفوق الحضارى الذى كانت تمثله فايقظ التحدى عقولهم • وبعد ذلك بأيام ، دخل محمد على القاهرة ، ضمن جيش اعادة السيطرة العثمانية ، لكى يبدأ مغامرته الكبرى بهدف اعادة الروح الى سلطنة العثمانيين وهى المغامرة التى أدت ، على العكس ، الى اعادة الروح لمصر نفسها وللعالم العربى •

ولكن فى منتصف ذلك الشهر نفسه ، ولد رفاعة الطهطاوى ،

(*) عن مجلة الاداب اللبنانية العدد السابع يوليو ١٩٧٧ ، السنة ٢٥ •

فى بلدة طهطا من قلب صعيد مصر · ولم يكن لولادته يومذاك مغزى، الا انه ولد فى البلدة التى أغرقت بنادق أهلها القديمة سفينة القيادة لحملة فتح الصعيد التى أرسلها نابليون من القاهرة ، فلم تستطيع أبدا أن تزعم انها فتحته · ولكن ولادته رغم ذلك كانت هى ثالث الأحداث فى ذلك الشهر التى سمت البداية لتاريخ مصر الحديث · بل ربما كانت ولادتــه ، هى الحــدث الأكثر أهمية ، اذا نظرنــا الى التاريخ بحثا عن أعماقه الحقيقية وأساسه · فان العمل الذى انجزه الصبى الصعيدى فيما بعد هو الذى أعطى المعنى الايجابى للحدثين الأولين ، فقد كان على شعب مصر ، الذى دفع الثمن كله أن يكون هو الذى يصنع بجهده ذلك المعنى ، وان يكون هو الذى يجسده ·

يصعب علينا الآن بالفعل ان نتخيــل نوع العــالم الذى جاءه رفاعة الصغير يوم مولده · كانت قد مرت ثمانية قرون تقريبا منذ بدأت سيطرة الأجناس الآسيوية ، المتخلفة حضاريا وثقافيا ، على مصر والوطن العــربى : من الأكراد والشركس والتركمان والمغول والأتراك · جاءوا قادة عسكريين ، ومماليك وغزاة فاتحين · وكانوا محاربين عظماء ، ولكنهم كانوا أيضا أصحاب تخلف حضارى وثقافى عريق · وبحكم سيطرتهم السياسية القائمــة على القهر ، وبحــكم غربتهم عن لغة الثقافة العربية ووصولهم الى السيطرة دون سند أولى من « مؤسسات » هذه الثقافة ــ الا الأسانيد الشــكلية ــ وبحــكم قسوتهم الأصلية وقسوة النظام الاجتماعى السائد ، فقد ترابطت هذه العوامل لكى تفرض على مصر ، وعلى الوطن العربى كله ستارا من التخلف والفساد العقلى والأخلاقى أصبح فيما بعد مضرب الأمثال · والقصص التى تروى عن ذلك ليست لها نهاية ، كما ان ذلك التخلف قد احتوى فى مضمونــه نسيانا كامــلا للتراث الحضارى والثقافى العظيم الذى ازدهر حتى قبل وصول « الآسيويين » بعشرات قليلة من السنين · ان علماء الأزهــر الذين ظنوا ان العلمــاء الفرنسيين يستخدمون نوعا من السحر فى معامل الكيمياء لكى يخدعوهم ، وأقر

مؤرخهم الكبير « عبد الرحمن الجبرتى » بأنهم يأتون أعمالا : «لا تسعها عقول أمثالنا » هؤلاء العلماء كانوا جديرين بان يظنوا نفس الظنون بأسلافهم العظماء من الفلاسفة والعلماء العرب ، من أمثال الفارابى وابن سينا أو الكندى أو ابن الهيثم أو البيرونى ·· هذا اذا اتيح لهم أن يسمعوا عن تلك الأسماء ·

ونحن الآن قد نستخدم لغة السجع والتورية اللفظية لكى نصنع بعض الفكاهات ·· ولكن هذه اللغة كانت هى اللغة الوحيدة التى يمكن أن يعبر بها من شاء الكتابة من هؤلاء العلماء · ولم تكن هذه اللغة الفقيرة قد استخدمت أبدا ، منذ نحو ألف سنة للتعبير عن شيء من العلوم الطبيعية ، ولا الفلسفة العقلية ، ولا العلوم البحتة ــ كالرياضة ــ ولا العلوم النظرية ــ كالفلك والهندسة · ونظرة واحدة الى المجلدات الأولى من كتاب فى التاريخ وضع فى هذه السنوات الألف ، تكشف عن التصور الخرافى الذى نقله المؤرخون من كتابات اليهود وغيرهم · ومن بقايا ما عرفوه من حكايات شعبية عن تاريخ شعبهم والشعوب المجاورة · وبعد مئة سنة فقط من موت المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير عبد الرحمن بن خلدون ·· وضع ــ عالم ــ أزهرى كتابا لتعليم أمير من المماليك فى مادة ــ وصف العالم ــ أو الجغرافيا ، ولكن هذا الكتاب يصلح لأن يكون دائرة معارف لكل الخرافات القديمة عن شكل كوكبنا وما يعيش فيه من أحياء ، ولا يكاد وصف مصر نفسها فيه يكون صحيحا ·

أما عن أدوات الموت ، فيكفى أن نتذكر ان الجبرتى قال ان الناس الذين تجمعوا لمشاهدة القتال بين الفرنسيين والمماليك فى انبابة : « لما عاينوا القنبر ــ أى قذائف المدافع ــ ولم يكونوا عاينوه من قبل ، صاحوا : يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف ، وان الجبرتى أيضا أبدى اعجابه بالعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة التى صنعها الفرنسيون لتسهيل نقل الأتربة · وقال انها ــ معجزة الناس الفرنساوية ــ وانها ــ شيء لطيف ··

ولكن هذا العالم كان قد اهتز هزة عنيفة فى السنتين السابقتين على مولد رفاعة • وان هؤلاء الناس الذين استنجدوا بخفى الألطاف حينما عاينوا القنبر ـ سبكوا شبابيك الجوامع والبيوت بعد عام واحد لكى يصنعوا مدافع وقنابل ليمنعوا كليبر من العودة للقاهرة فى ثورتها الثانية ، ونظموا أول مقاومة وطنية مسلحة وسرية ضد السلطة الاستعمارية انتهت بقتل كليبر نفسه بعد أيام ، واستمرت لكى تعزل ولاة السلطان الذين جاؤوا من الاستانة واحدا بعد الآخر وارغمت السلطان بالثورة على تعيين الوالى الذى ارادته قيادة المقاومة من نفس مشايخ الأزهر الذين سحرتهم معامل الكيمياء واستصغروا عقولهم أمامها قبل عامين اثنين فقط •

كان بعض هؤلاء المشايخ قد اكتشف معنى الحرية ومعنى ان تحكم الأمة نفسها بنفسها ، ومعنى أن تكون الأمة منظمة تدافع عن نفسها بالسلاح • وقد تكرر هذا الدفاع أيام حملة فريزر فى رشيد والاسكندرية • وتحت نفس القيادة التى شجعت محمد على لكى يقاوم الغزوة الانجليزية ولا يهرب كما فعل المماليك • واكتشف بعض المشايخ الآخرين قيمة العلم والحضارة • وهؤلاء هم الذين ارتبط بهم رفاعة الشاب حينما وصل الى القاهرة لكى يدرس فى الأزهر وهو ى السادسة عشرة من عمره ، فقيرا يحفظ القرآن وبعض كتب شروح لنحو والبلاغة والفقه •

وفى القاهرة يكتشف شيخه الكبير ، وشيخ الأزهر فيما بعد ، حسن العطار الذى كان يجمع فى بيته المع تلاميذه لكى يتباحثوا فيما عرفوه من علوم الفرنسيين ، وأسباب تفوقهم الظاهر على المماليك ، وولعهم بالمعرفة والنظام والنظافة ، واكتشف الشيخ الكبير موهبة تلميذه الشاب • وبينما كان عقل الشاب يتفتح أمام ما يسمعه ، كانت الدولة توطد أركانها • فقد أباد محمد على بقايا المماليك وقضى على أسس النظام الاقتصادى والادارى القديم • واكتشف ان باشوات

الاستانة سيعملون على خلعه حتى لا يخلق مركزا قويا ينافسهم من القاهرة ، وقرر أن — جيشا قويا — هو ما يمكن ان يحميه • وبمجيء عدد من ضباط جيش نابليون المهزوم فى ووترلو ، وعدد من الاقتصاديين والسياسيين اتباع — سان سايمون — الاشتراكي الخيالي الفرنسي ، حصل طموح محمد علي ، على الأفكار العلمية اللازمة لتجسيد خياله — وهو كعسكري لابد أن يفكر في ان بناء الجيش يمكن أن يكون النواة التي ينبغي أن يشيد فوقها وحولها بناء الدولة كلها • ان جيشا حديثا يحتاج الى ادارة وصناعة وعلوم ومدارس واقتصاد حديث ، ولا يمكن أن تنتجه مؤسسات متخلفة ، وبذلك بدأ تجنيد الشباب للجيش • وارسال أفراد قلائل لتلقى العلوم اللازمة لتوسيع هذا الجيش وتغذيته بما يلزمه وتغذية الدولة التى ستنفق عليه وترسله فى الحروب المطلوبة منها ، أو الحروب التى ستفرض عليها •

ويكتشف رفاعة ، مع الفقر واحتياجه للرزق المنتظم الذى لا يتيحه التدريس فى الأزهر ، يكتشف أهمية الالتحاق بوظيفة فى هذه المؤسسة الجديدة التى ستبنيها الدولة ، والتى ستبنى هى الدولة بدورها •

ويصبح رفاعة ، الأزهرى الذكى ، تلميذ حسن العطار الذى تفتحت آفاق خياله وعقله بأحاديث أستاذه عن حضارة الغرب ، يصبح موظفا فى الدولة الجديدة ، اماما وواعظا فى احدى وحدات الجيش الجديد • ومن هنا تبدأ رحلة الخلق الجديد •

لقد كان من الممكن أن يعود رفاعة الطهطاوى من باريس الى القاهرة مثلما ذهب ، مجرد امام وواعظ فى احدى وحدات الجيش ، وكان يمكن أن يعود ، حتى بعد انضمامه الى البعثة كدارس وليس كمجرد امام وواعظ ، كواحد منها ، وواحد من الذين درسوا معه ومن بعده فى عواصم أوروبا ، فيتحول الى مجرد اداة تكنيكية متوسطة

الاعداد ، تؤدى خدمة معينة الجيش محمد على ودولته ثم تنتهى مثلما انتهت دولة محمد على وانتهى جيشه بعد هزيمته أمام القوى الأوروبية التى أفزعها تقدمه فاتخذت ضده وضد مصر ، أو ضد عمله على انعاش السلطة العثمانية فى الحقيقة .

ولكن رفاعة ، يقدم لنا نموذجا مثاليا للدور الذى يمكن أن تلعبه العبقرية الفردية فى التاريخ : العبقرية التى تكتشف المغزى الحقيقى لاحداث عصرها وتيار تلك الاحداث ، وتكتشف واجبها فى استخلاص كل ما هو ممكن من ذلك التيار لصالح قوى التقدم الحقيقية والأصيلة .

لقد انتهت « اسطورة » محمد على بهزيمته واجباره على قبول شروط أوروبا وباشوات السلطنة المتواطئين ضده ، وجاء بعده وبعد موت ابنه ابراهيم باشا ، حفيده الخديوى عباس ، صورة من الولاة القدماء تخلفا وجهلا وقسوة وغباء وحرصا على التخلف والجهل والغباوة ، وتغلق مدرسة الالسن وكل ما انشأه رفاعة وتلامذته من المدارس ومؤسسات الدولة المتمدينة التى تحايلوا لخلقها مستفيدين من طموح محمد على ، ومن الضرورات الى خلقها وفرضها على الدولة وعلى المجتمع كله ذلك الطموح .. وينفى رفاعة الى السودان .

فكيف كان يمكن أن تبدو أسطورة محمد على ، الا لونا من الذكريات يتبادلها المشايخ والموظفون والضباط القدماء المسرحون من الجيش المتضائل .. لولا الكتب الألف التى كان رفاعة وتلاميذته قد نقلوها الى العربية فى كل الفنون والعلوم وطبعوها ، فوزعت بين مئات البيوت وألوف الأيدى ..

ولم يعد فى وسع الخديو المتخلف الغبى لا ان « يغلقها » كما أغلق مدارس رفاعة،ولا أن ينفيها مثلما نفى المعلم الأول الذى اختارها بنفسه وأشرف على ترجمتها ، وراجع الكثير منها ، وتلقى بيديه أول نسخة منها جميعا طوال سبعة عشر عاما ؟ ويتكرر نفس الموقف أثناء

سنوات تحرير الوالى سعيد الذى جاء بعد عباس ، ثم أثناء حكم اسماعيل ، حتى بلغت تلك الكتب أكثر من ألفين ·

فبينما كان محمد على يحلم بالامبراطورية ·وبكرسى الصدر الأعظم فى الاستانة ، ويحصى النقود التى جمعها جباته بالسياط من فلاحى مصر وتجارها ، وبينما كان يظن أن دولته ·· ومن أكبر موظفيها رفاعة نفسه — لا عمل لها الا تصنيع الأسلحة والجنود وجمع النقود ·· كان رفاعة يضع الأساس لاستمرار تطور مصر نفسها وبنيانها الحضارى الحديث كله ·· بصرف النظر عن مصير هذه المغامرة التى ما كان العصر الاستعمارى يقبلها فى المنطقة التى تمثل محور الارتكاز لاستراتيجية الدول العظمى طوال القرن التاسع عشر ، لم يكن محور حلم الباشا هو مصر ، وانما السلطنة العثمانية التى كان التاريخ قد حكم عليها بالزوال ، ولم يكن يبقيها الا منطق توازن القوى فى وسط العصر الاستعمارى ، ولم يكن هم الباشا عظمة الاسلام وانما مجده الشخصى ·· أما الشيخ المعلم فكان محور حلمه هو مصر فى المستقبل لأنه تفرغ لتعليمها ولغرس البذور التى لا تموت ولا تتحكم فيها أية معاهدات دولية ولا أية نهايات لمصائر أفراد بعينهم، وكان همه هو المصريون وحريتهم ورخاؤهم واستنارتهم وحكمهم لأنفسهم وحصولهم على حياة جديرة بالبشر ، يصنعونها بأنفسهم ·

كان يمكن فى باريس أن يتعلم اللغة وأن يتقن الترجمة ، وأن يكتفى بترجمة نصوص الكتب المدرسية التى ستلقى فى الفنون العسكرية على ضباط وجنود الجيش طبقا لخطة محمد على وتصور رجاله عن وظيفة هذه البعثة التعليمية والبعثات المشابهة ·· ولكن ها هو رفاعة الشاب يحرث أرض المعرفة كلها لكى يعد نفسه للمهمة التى قرر أن يتولاها ، والتى رأى أن التاريخ نفسه يؤذن بامكانية تحقيقها : مهمة بعث الحياة فى عقل هذه الأمة ووجودها اعتمادا على أصولها بالذات ، وعلى أساس بث الروح الحية فى الادارة الأساسية

لصنع الحضارة واستيعابها وهي : اللغـة ، حتى تمتلك الأمـة في لغتها أسرار تلك الحضارة الحديثة وأوعيتها وما تحتويه •

وفي يقيني أن المعلم الاول ، كان واعيا منذ البداية بما يفعله . وبما يريد انجازه ، ربما نبهه أحد الى ضرورة أن يهتم بكل فروع المعرفة حتى يصبح « مترجما » يترجم كل شيء الى لغته العربية • ولكن من المؤكد أنه هو الذي اختار فروع المعرفة التي يركز اهتمامه عليها • والكتب التي سيشرع في ترجمتهـا للاستفادة المبـاشرة بمادتهـا ولتطويع اللغة العربية — بمفرداتها وتركيبتها — من أجل أن تصبح قادرة على استيعاب هذه المادة وما يترتب عليها حتما من أفكار • لقد طلب اليـه أستاذه الشيخ حسن العطار قبـل السفر أن يسـجل ملاحظاته ، ولكن رفاعـة هو الذي كتب صورة الحضارة والثقافـة الغربيتين ، ولخصهما ، ونقدهمـا ، واكتشف موقفهما الحقيقي من « الشرق » ومن وطنه ، وعرف انهما قد يكونان اداة تصلح لتطوير بـلاده ، ولكن من الخطـر الاستسلام لهمـا ، ومن الغباء السعي الى استبدال جوهر وطنه بهما •

وتوحي مختارات المعلم الأول للترجمة ، وموضوعاته للتـأليف ، انه اكتشف الحاجات الحقيقية لحياة أمته ، ولعقلها ، اكتشف انها بحاجة الى المعارف العملية وتطبيقاتها ، فاهتم بالرياضة والهندسة والمعادن والادارة والاقتصاد ، ولكنه اكتشف أيضا حاجتها الى تغيير تصورها عن الكون وعن الكواكب الذي نعيش فيه ، وفي هذا سر اهتمامه الشخصي الخاص بالجغرافيا وبالفلك • ولا شك انه توقف كثيرا عند المغزى الذي تدل عليه الحقيقة التي نعرفها عن التطابق بين بداية علوم الفلك والجغرافيا الحديثة وبين بداية عصر النهضـــة والتحرر الفكري في الغرب • فبهذين العلمين حصل الانسان الغربي على « الاحساس » الصحيح بوضع البشر في الكون •• وبشكل هذه الأرض التي يقفون فوقها واستبدلوا التصور الخرافي القديم بشعور

« ملحمي » يقيني جديد يدفعهم دفعا الى مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعة ، يشعرون فيه بانهم يواجهون أشياء يمكنهم بالفعل معرفتها والوصول اليها ، وإخضاعها لاحتياجات الانسان ، وليسوا أمام « مشاعل معلقة فى السماء يسكنها الملائكة كما جاء فى « نهاية الأرب » وفى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قديما ولا يقفون فوق « اسطوانة مستديرة يمسكها تدبير الهى فوق قرن ثور ، ويقال فوق ظهر سلحفاء يقف أو تقف فوق ظهر حوت يسبح فى بحر الظلمات » •
ولاشك أن المعرفة « العلمية » بحقيقة ذلك الوضع والايمان بهـ يخلقان شعورا مختلفا وحالة عقلية متميزة كل التميز عن الشعو الذى تولده الخرافات الأخيرة •

وهذا الشعور وتلك الحالة العقلية هما ما سعى اليهما المعلم الأول ، لانهما يعنيان « الحرية » والقدرة على الفعل •• النتيجة المحتمة للعلم ، بدلا من حالة القهر والعجز التى تخلقها التصورات الخرافية •

والى جانب الجغرافيا والفلك ، اهتم المعلم الأول بالتاريخ وبما يمكن أن نسميه « فلسفة التاريخ » أو « علم الاجتماع » ، أو بنوع من «الانثروبولوجيا» ــ «علم تاريخ العقائد» • فبعد تصحيح احساس الناس بوضعهم فى الكون وفى كوكبهم ، اكتشف المعلم الأول حاجة أمته الى تصحيح تصورها عن تاريخ المجتمع الانسانى نفسه أو تاريخ البشر أنفسهم على هذا الكوكب ، ثم الى تصحيح تصورها عن تاريخها، هى بالذات • ولذلك لم يكتف بترجمة وتأليف الكتب التى تقدم « حقائق » ذلك التاريخ وانما أضاف اليها الكتب التى تكشف معنا تلك الحقائق بوصفها ظواهر موضوعية •• تحكمها قوانين لا سيطر للبشر عليها الا اذا حققوا الوعى بها ، كسائر قوانين العلم التى تتحكم فى سائر ظواهر الطبيعة ، وهى الكتب التى تمنح أمته التصور الصحيح عن حياة وعقائد وتصورات الأمم الأخرى ، حتى يسود أمته احساس موضوعى ازاء هؤلاء الآخرين ، ينتج عن المعرفة بحقيقتهم •

بدلا من التصورات الخرافية التى نجدها أيضا فى كتب مؤرخى الألف سنة الماضية وعلمائها ٠

ونظرة الى كتاب الطهطاوى عن تاريخ مصر وتاريخ العرب : « أنوار توفيق الجليل فى تاريخ مصر وتوثيق بنى اسماعيل » تكشف أيضا عن رغبته فى اقامة تصور المصريين عن تاريخهم على نحو صحيح: انهم أصحاب تلك الحضارة العريقة القديمة التى تطورت حتى التقت بنهر التاريخ العربى فاستوعب أحدهما الآخر وصارا نهرا واحدا له « روافد » بعيدة متعددة الأصول ، وان عليهم أن يعيشوا الوعى بهذا البعد التاريخى لوجودهم « الاجتماعى » حتى يعرفوا أنفسهم والمعنى الحقيقى لحضارتهم المعاصرة ، وحتى يعرفوا انهم هم الذين صنعوا تلك الحضارة ، وانهم صنعوها من خلال صراع عظيم ضد عناصر وعوامل القهر الكثيرة ٠

وأخيرا نكتشف اهتمام المعلم الاول باللغة ، سواء عن طريق اثرائها مباشرة بالترجمة ، واحيائها لكى تتمكن من استيعاب تلك العلوم والمعارف التى لم تستخدمها أبدا طوال ألف سنة ، والتى تطورت وتشعبت بشكل هائل طوال تلك القرون العشرة ، أو عن طريق تحديد المصطلحات العلمية الجديدة وتوحيدها عن طريق وضع القواميس الخاصة فى نهاية كل كتاب مترجم ، تحديدا للمعانى وتوحيدا لها فى أذهان من يستخدمون الاصطلاحات فى العمل أو فى التعليم ٠ وكان المعلم الأول عمليا الى أقصى حد فى هذا المجال ، فكان يلجأ الى اللهجة العامية لكى يأخذ منها المصطلح الذى يريده اذا لم تسعفه الفصحى،فاذا لم يجد فى العامية بغيته كتب المصطلح الأوروبى بالحروف العربية كما هو ٠وكذلك فى اسلوب التعبير الذى كان قائما فى عصره على ضرورة استخدام المحسنات البديعية من سجع وجناس وتورية ٠٠ الخ ٠٠

لقد اكتشف خطورة ذلك القيد الثقيل على العقلية العربية منذ

تعلم الفرنسية فى الشهر الأول من اقامته فى باريس ، وبدأ منذ ذلك الحين، فى الصفحات الأولى من كتابه الأول « تخليص الأبريز » محاولة التخلص من ذلك القيد ، سعيا الى دقة التعبير وتطابقه مع حقائق الأشياء ومع جوهر المعانى التى يريد التعبير عنها ·

ان هذا الصراع الكبير من أجل تحرير اللغة،ومن أجل تحريرها من « التقديس » من أجل اثرائها بالمفردات والمصطلحات وأساليب التعبير ، انما تكشف عن ادراكه لأن اللغة وعاء للثقافة والحضارة جميعا ، وانه دون اعداد هذا الوعاء ، لكى يكون مستعدا للاتساع والتشكل باشكال ما يحتويه ، فانه لا أمل فى تطور حقيقى لعقل أمته ، وبالتالى لحياتها ·

لقد انتهت مغامرات الباشوات الثلاثة ، محمد على ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ، نهايات تتناقض جوانبها بين النفع والضرر ، كما تتناقض مقدماتها بين الخير والشر ، أما مصر فقد فازت بما صنعه أبناؤها ، وعلى رأسهم معلمها الأول الكبير وما حققوه من معرفة وحرية وبنيان مادى ومعنوى ، حضارى وثقافى تقوم عليه حياتهم الجديدة ·

وفى ظنى أن هذا البنيان ، وفى جانبه المعنوى الثقافى بالذات، قد كان فى حساب القوى التى كانت تخطط للقضاء على النهضة المصرية لتحويل مصر الى مستعمرة ونقطة حراسة لطريق المواصلات الامبراطورية فى نفس العصر الاستعمارى·ولا شك ان الأجيال التالية للمعلم الأول ، قد جاهدت لكى تكمل طريقه ، وكان عليها أيضا أن تجاهد ضد ذلك المخطط الذى ارادنا أن نتخبط فى طريق المعرفة والحرية · ولعلنا نستطيع فى اعادة اكتشاف معنى العمل الذى حققه « جدنا الجليل » أن نعود الى طريقه المستقيم ·

المعلم الأول :
بطاقة حيـاة

١٥ أكتوبر ١٨٠١ ـ يولـد فى طهطا ، ويتولى أبوه واخوالـه تعليمه الأول بالعلوم التقليدية وعلى الاسلوب الأزهرى ٠

ـ ١٨١٧ ـ يأتى الى القاهرة ويلتحق بالأزهر ٠

ـ ١٨٢٢ ـ التدريس فى الأزهـر ، وتدعيم علاقتـه بالشيخ حسن العطار ، أكبر من أدرك أهمية الجانب الحضارى الذى مثلتـه الحملة الفرنسية والتحدى الكامن فى هذا الجانب ٠

ـ ١٨٢٤ ـ يلتحق بالجيش الجديد ـ أكبر مؤسسات محمد على ـ كامام وواعظ ٠

ـ ١٨٢٦ ـ باريس ، والذهاب اليها اماما لبعثة من ٣٤ طالبا ، نصفهم من أصـل مصرى ، لدراسة العلوم الفيزيقية والانسانيـة ، والاجتماعية المختلفة ٠ وطلبه الانضمام الى البعثة كدارس لا مجرد امام وواعظ ٠ وقرار ضمه الى البعثة لدراسة الترجمة ٠

ـ ١٩ أكتوبر ١٩٣٠ ـ الامتحان النهائى فى ختام الدراسة ، يقدم للجنة الامتحان نصوص ١٢ كتابا أو فصولا من كتب قام بترجمتها خلال سنوات الدراسة الخمس ، تشمل جوانب من علوم التاريـخ والتعدين والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة المدنية وفن القيادة العسكرية والقانون العام وفلسفة القـانون والميثولوجيا اليونانيـة والصحة العامة وتقويم البلدان ٠٠ هذا بالاضافة الى المخطوطة الكاملة لكتاب « تخليص الأبريز ٠٠ » الذى يقدم فيه اكتشافـه للحضارة الغربيـة : تاريخها واصولهـا ومؤسساتها السياسية والثقافيـة والاقتصادية والتشريعية والقضائية ، وأدبها وأصول السلوك والعادات

فيها ، وحقوق الافراد ٠٠ ووجهة نظره النقدية والموضوعية فى كل ذلك ٠

ـ ١٨٣١ ـ العودة الى الوطن ، وبدء العمل مترجما فى مدرسة الطب تحت رئاسة مترجم لبنانى ، ثم الاشراف على المدرسة التجهيزيه « الثانوية » ويعمل على تطوير مناهج الدراسة فى مواد : الحساب والهندسة ، ووصف الكون « الفلك » والتاريخ الطبيعى ، والتاريخ الاجتماعى ـ القديم ـ والحديث ، والمنطق ٠

ـ ١٨٣٣ ـ الانتقال الى « مدرسة الطوبجية » للمدفعية ، والشروع فورا فى اعداد وتنفيذ مشروع اقامة « الجامعة » الأولى فى مصر وانشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » وتدريس علم الجغرافيا بنفسه ، ثم طلب اعفائه من العمل فى مدرسة الطوبجية ، والتخطيط لانشاء « مدرسة الألسن » لتكون النواة الحقيقية للجامعة ٠ وترجمة المجلد الأول من « جغرافية ملطبرون » ٠

ـ ١٨٣٥ ـ افتتاح مدرسة « الترجمة » التى أصبحت مدرسة الألسن « فيما بعد ، وقبول الدفعة الأولى ٢٧ طالبا ، تخرج منهم عشرون والشيخ رفاعة يدرس التاريخ والجغرافيا والمنطق والقانون والفلسفة والأدب ، والاشراف الفنى والادارى ، توجيه الطلبة فى الدراسة ، واستثمارهم فورا فى الترجمة ، والتركيز على العلوم الانسانية،وعلى التاريخ والقانون والفلسفة بالذات ويترجم أول كتاب فى تاريخ العقائد وعادات الشعوب ، مع بدء جمع الآثار المصرية واستصدار أمر صيانتها ومنعها من التهريب والضياع ٠

ـ ١٨٣٧ ـ يصدر ترجمته لكتاب « قدماء الفلاسفة » ٠

ـ ١٨٨٣ ـ ترجمة كتاب « تاريخ قدماء المصريين » وترجمة كتاب « المنطق » ٠

ـ ١٨٤٠ ـ انشاء « مدرسة المحاسبة » لدراسة العلوم

الاقتصادية والادارية ، انشاء « مدرسه الادارة الافرنجية » ، للعلوم السياسة والادارية العليا •

١٨٤١ — « عودة قليلة الى الوراء » انشاء أقسام متخصصة للترجمة : في الرياضيات ، والعلوم الطبية الطبيعية ، العلوم الاجتماعية ، الترجمات التركية وقرار التدريس باللغة العربية لكل المواد •

— ١٨٤٢ — الاشراف على صحيفة الوقائع المصرية،وبدء اصدارها على أساس ان العربية لغتها الأساسية بدلا من التركية •

— ١٨٤٣ — اضافة وظائف جديدة ، تفتيش عموم مكاتب الأقاليم ، والاشراف على « الكتبخانة الافرنجية » وعلى عدد من المدارس العسكرية والمدارس الأولية في الأقاليم •

— ١٠ — نوفمبر ١٨٤٨ — وفاة ابراهيم باشا ابن محمد على وخليفته في حياته ، ثم وفاة محمد على نفسه بعد أقل من سنة ، وانفراد الخديو عباس بالحكم •

— نوفمبر ١٨٤٩ — عباس يغلق مدرسة الألسن ، ثم المدرسة التجهيزية بمشورة انجليزية ، ويقصر توزيع « الوقائع » على أصحاب الوظائف الكبرى •

— ١٨٥٠ — عباس ينفى رفاعة الطهطاوى الى السودان — ترجمة مسرحية — « تليماك » — في السودان ، الكفاح من أجل العودة للوطن•

— ١٨٥٤ — موت عباس ، وولاية سعيد ، وعودة رفاعة من السودان ، وتعيينه مترجما في مجلس محافظة القاهرة وعضوا بالمجلس ، أول مشروعاته « انشاء مكاتب الملة » أى مكاتب الأمة ، لنشر التعليم بين عامة أفراد الشعب ، أى محو الأمية ، أمية القراءة والكتابة ، وأمية الفكر وسعيد يتجاهل المشروع •

ـ ١٨٥٥ ـ تعيينه وكيلا للمدرسة الحربية ، ثم انشاؤه مدرسة أركان الحرب ، ثم يحولهـا الى مدرسة للتثقيف والتعليم الانسانى العام ، بدراسة اللغات الشرقية والأوروبية والتاريخ والجغرافيا ·· الخ الى جانب العلوم التطبيقية الأساسية ·

ـ ١٨٥٥ ـ منظوماته الشعرية الوطنية التى دعا فيها الى محو أثار نكسة عباس وبدء النهوض من جديد ·

ـ ١٨٥٦ ـ اقناع سعيد بتبنى مشروع احياء التراث العربى والاسلامى والبدء بطبـع تفسير الرازى للقرآن ، وخزانـة الأدب ، ومقامات الحريرى ·

ـ ١٨٦١ ـ نكسة سعيد ، وفصل رفاعة من العمل حتى وفاة سعيد بعد اغلاق مدرسة أركان الحرب ·

ـ ١٨٦٣ ـ وفاة سعيد وولاية اسماعيل ، وعودة رفاعة الى النشاط · الاشراف على « المكاتب الأهليـة » ورئاسة مجلسهـا ، والاشراف على تدريس اللغة العربية ، ورئاسة قلم الترجمة الجديد وترجمة جميع القوانين الفرنسية ·

ـ ١٨٦٨ ـ اصدار كتابه « أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل » ·· أول كتاب مصرى علمى عن تاريخ مصر القديمة ، وتاريخ العرب قبل الاسلام ·

ـ ١٨٦٩ ـ اصدار كتابه « مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية » لبحث موضوع « التمدن » وأصوله وأطواره ، مع اصدار كتابه فى تبسيط علم النحو وقواعد اللغة العربية ·

ـ ١٨٧٠ ـ انشاء مجلة « روضة المدارس » أول مجلة ثقافية وفكرية وأدبية فى مصر ، واصدار ملاحقها فى شكل كتب كاملة ، فى

الفلسفة والجغرافيا والصحة العامة وعلم النبات والفلك ، والفقـه الاسلامي ، والأخلاق ، والتاريخ العربي والاسلامي .

ـ ١٨٧٣ ـ اصدار كتابه « نهايـة الايجاز في تاريـخ سـاكن الحجاز » ـ عن تاريخ وسيرة الرسول . صدر بعد وفاته في نفس العام : ١٨٧٣ .

سامي خشبة

الفهـرس

الموضـــوع	الصـــفحة
الباب الرابع من المقدمة : فى ذكر رؤساء هـــذه السفرة	٩٢
المقصد : فى مدة السفر من مصر الى باريس ، وما رأيناه من الغرائب فى الطريق ، أو مدة الاقامة فى هذه المدينة العامرة بسائر العلوم الحكمية ، والفنون ، والعــــدل	٩٥
المقالة الأولى	٩٦
الفصل الأول : فى الخروج من مصر ، الى دخول ثغـــر اســـكندرية	٩٦
الفصل الثانى : فى ذكر نبذة تتعلق بهذه المدينة . . .	٩٨
الفصل الثالث : فى ركوب البحـر المالح المتصل بثغــر الاســكندرية	١٠٤
الفصل الرابع : فيما رأينـــاه من الجبـــال ، والبلاد ، والجـــزائر	١٠٨
الفصل الأول : فى مدة اقامتنا فى مدينة مرسيليا . .	١١٥
الفصل الثانى : فى الخـــروج من مرسيليا الى دخول باريس ، وفى المسافة بينهما	
المقالة الثالثة	١٢٥
الفصل الأول : فى تخطيط باريس ، من جهة وضـــعها الجغرافى ، وطبيعة أرضـــها ، ومزاج اقليمها وقطرها	١٢٥

الموضــــوع	الصــفحة

الموضــــوع	الصــفحة

الموضـــوع	الصفحة
الفصل السادس : في الامتحـــانات التي صنعت معي في مدينة باريس ، خصوصا في الامتحان الأخير الذي أعقبـه رجـوعي الى مصر	٣١٥
المقالة الخامسة : في ذكر ما وقع من الفتنة في فرنسا ، وعزل الملك قبل رجوعنا الى مصر	٣٢١
الفصل الأول : في ذكر مقدمة يتوقف عليها ادراك علـة خروج الفرنساوية عن طاعة ملكهم	٣٢٢
الفصل الثاني : ذكر التغيرات التي حصلت ، وما ترتب عليها من الفتنـة	٣٢٥
الفصل الثالث : كيف كان يصنع الملك في هـــذه المدة ، وفيما جرى بعد ذلك من رضائه بالصلح . بعـــد فوات أوانه ، وفي خلعه المملكة على ابنه . . .	٣٣٢
الفصل الرابع : فيما انحط عليه رأى أهل المشورة ، وفيما ترتب على هذه الفتنة من تولية « الدوق دورليان » ملك الفرنســاوية	٣٣٦
الفصل الخامس : فيما حصل للوزراء الذين وضـــعوا خطوط أيديهم على الأوامر السلطانية ، التي كانت السبب في زوال مملكة الملك الأول	٣٤١

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
الفصل السابع : فى علم الحساب المسمى باللغة الأريتماطيقى	٢٧٨
الخاتمة : فى رجوعنا من باريس الى مصر ، وفى عدة أمور مختلفة	٣٨٤
رفاعة رافع الطهطاوى : المفكر المعلم	٤٠٥

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٤٥٠٧/١٩٩٣

ISBN — 977 — 01 — 3370 — 1

المواجهة

بلغت مؤامرات التطرف والارهاب فى مصر معدلات غير مسبوقة خلال السنة الأخيرة . ولم تعد هذه الظاهرة مجرد تهديد للدولة والنظام الحاكم ، بل أصبحت تهدد المجتمع المصرى كله ، سواء فى بنيته الداخلية او فى اقتصاده او أمنه الاجتماعى والسياسى ومكتسباته الثقافية والفكرية ، وكذلك انجازاته الاقتصادية والمادية . ولا تقل الحرب التى يشنها المتطرفون والارهابيون ضراوة عن اى حرب خاضتها مصر مع اعدائها الخارجيين فى هذا القرن . بل ربما كانت هذه الحرب اشد ضراوة ، لأن أحد أطرافها هم أبناء لنا ، أعماهم التطرف : فاختاروا العنف سبيلا لفرض إرادتهم وزعزعة استقرار الوطن : واستهدف عنفهم ابناء لنا فى أجهزة الامن ، أو اخوة لنا من المدنيين المسالمين العزل ، مسلمين واقباطا.

ان ما تمر به مصر الآن هو ماساة إنسانية وثقافية وحضارية ، وكارثة إقتصادية وسياسية ولذلك أصبح من الضرورى أن ينتفض المثقفون المصريون ، ومؤسسات مجتمعهم المدنى ، للوقوف في وجه التطر[illegible] لمحاصرتهما واحتوائهما ، تمهيدا لاقتلاعهما تماما .

من أجل هذا تصدر الهيئة المصرية العامة للكتاب ب المصريين هذه السلسلة للوقوف أمام هذه الظاهرة بالفكر المستـ الحق الشريفة .

سعر رمزى
ستة وعشرون قرشا

الغلاف للفنان : محمود الهندى